الكتاب الثاني

الأرض في قبضة المريخيين

الفصل الأول

تحت الأقدام

في الكتاب الأول حِدْت كثيرًا عن مغامراتي الخاصة لأتحدث عن التجارب التي مر بها شقيقي، وعلى مدار الفصلين الأخيرين كنت أنا والكاهن نختبئ في المنزل الخالي في «هاليفورد» حيث لذنا بالفرار هربًا من الدخان الأسود. ومن هناك سأواصل الحديث. بقينا هناك طوال ليل الأحد وطوال اليوم التالي — يوم الذعر — في جزيرة صغيرة يملؤها ضوء النهار وقد عزلها الدخان الأسود عن بقية العالم. لم يكن بمقدورنا فعل شيء سوى الانتظار وسط حالة من الخمول المؤلم خلال هذين اليومين المثيرين للضجر.

كان عقلي مشغولًا بالقلق على زوجتي. تخيلتها في «ليذرهيد» مذعورة، يحدق بها الخطر، تبكيني على اعتبار أني قد لقيت حتفي. ذرعت غرف المنزل جيئة وذهابًا وأنا أبكي بصوت عال عندما فكرت كيف بُوعد بيني وبينها، وفي كل ما قد ينزل بها أثناء غيابي. أعلم أن ابن عمي يتحلى بالشجاعة الكافية للتعامل مع أي موقف طارئ، لكنه لم يكن من نوعية الرجال الذين يدركون وقوع الخطر سريعًا، فيهبُّوا للتصرف على الفور. لم تكن الشجاعة هي المطلوبة آنذاك، وإنما الحيطة والحذر. عزائي الوحيد أني فكرت في أن المريخيين كانوا يتحركون باتجاه لندن بعيدًا عن زوجتي. تلك الهموم التي يكتنفها الغموض تجعل العقل سريع التقلب وتثير الشعور بالألم. زاد سأمي وغضبي من صرخات الكاهن الدائمة. تعبت من رؤية قنوطه الأناني. بعد عدد من الاعتراضات التي لم تُجد نفعًا ابتعدت عنه، وجلست في غرفة — كان واضحًا أنها غرفة درس الأطفال — تحتوي على مجسمات للكرة الأرضية وأوراق ودفاتر. وعندما تبعني إلى هناك ذهبت إلى مخزن في أعلى المنزل، وأغلقت الباب على نفسي لأبقى وحيدًا مع همومي المؤلمة.

حاصرَنا الدخان الأسود بما يبعث على اليأس طوال ذلك اليوم وصباح اليوم التالي. كانت هناك أمارات على وجود أشخاص في المنزل المجاور مساء يوم الأحد؛ فكان هناك

وجه خلف النافذة ومصابيح تتحرك وأخيرًا صوت صفق لأحد الأبواب. لكنني لم أكن أعرف شيئًا عن هؤلاء الأشخاص، أو عما حدث لهم. لم نر أحدًا منهم في اليوم التالي. زحف الدخان الأسود شيئًا فشيئًا نحو النهر طوال صبيحة يوم الاثنين مقتربًا منا أكثر فأكثر، لينجرف أخيرًا على طول الطريق الممتد خارج المنزل الذي كنا نختبئ داخله.

جاء أحد المريخيين عبر الحقول نحو منتصف النهار، وبدأ يطلق دفقًا من البخار فائق الحرارة يصدر صفيرًا عند اصطدامه بالجدران، وحطم كل النوافذ التي مسها، وسفع يد الكاهن أثناء فراره من غرفة المعيشة. عندما تمكنا أخيرًا من التسلل عبر الغرف الرطبة ونظرنا في الخارج مجددًا، بدت البلدة ناحية الشمال وكأن عاصفة ثلجية سوداء قد مرت فوقها. وعندما نظرنا تجاه النهر، تملكنا الذهول لرؤية حمرة هائلة تمتزج بسواد المروج المحترقة.

لم نتبين لبعض الوقت كيف يمكن لهذا التغيير أن يؤثر على وضعنا، باستثناء أننا تخلصنا من شعورنا بالخوف من الدخان الأسود. لكنني أدركت لاحقًا أننا لم نعد محاصرين، وأنه يمكننا الفرار الآن. وحالما أدركت أن طريق الفرار مفتوح، عاودني الحلم بفعل شيء ما. لكن الكاهن كان متبلدًا لا يطاق.

أخذ يردد: «نحن بأمان هنا. بأمان هنا.»

عقدت العزم على أن أتركه ... ويا ليتني فعلت! وعملًا بنصيحة المدفعي، بحثت عن طعام وشراب. عثرت على دهان وضمادات من أجل الحروق التي أعانيها، وأخذت أيضًا قبعة وقميصًا قطنيًّا وجدتهما في إحدى غرف النوم. عندما تأكد له أني عازم على الذهاب من دونه — إذ كنت قد أقنعت نفسي بالذهاب بمفردي — قرر مرافقتي فجأة. ولما كان الهدوء يخيم على المكان فترة الظهيرة، بدأنا التحرك في الساعة الخامسة حسبما أظن على طول الطريق المتشح بالسواد إلى «صنبري».

في «صنبري» وعلى مسافات متباعدة على الطريق كانت جثث الخيول والبشر على السواء ممددة في هيئات ملتوية، وكانت هناك عربات مقلوبة وأمتعة، وكل شيء مغطى بطبقة كثيفة من الغبار الأسود. تلك الغيمة من الذرور الرمادي جعلتني أفكر فيما قرأته عن الدمار الذي لحق بمدينة «بومبي» الإيطالية. وصلنا إلى «هامتون كورت» دون أن يصيبنا مكروه، وعقولنا مملوءة بأفكار غريبة غير مألوفة، وفي «هامتون كورت» شعرنا بالارتياح عندما وقعت أعيننا على رقعة خضراء نجت من الدخان الخانق. سرنا عبر منتزه «بوشي بارك» حيث الغزلان تتحرك هنا وهناك أسفل أشجار الكستناء، وبعض

الرجال والنساء يركضون على مسافة نحو «هامتون»، وهكذا وصلنا «تويكينام». كان هؤلاء أول من نراهم من البشر.

بعيدًا على الطريق، كانت الغابات على مسافة من ضاحيتي «هام» و«بيترشام» لا تزال مشتعلة. لم تتعرض «تويكينام» للشعاع الحراري أو الدخان الأسود، وكان بها عدد أكبر من الناس، ومع ذلك لم يستطع أحد مدَّنا بالأخبار. كان هؤلاء القوم في الأغلب مثلنا يستغلون السكون ليتنقلوا من مكان لآخر. تولَّد لديّ انطباع بأن معظم المنازل هنا لا تزال مأهولة بسكان مذعورين، حتى إن ذعرهم أعجزهم عن محاولة الفرار. وهنا أيضًا ظهرت آثار تدل على وجود حشد مسرع على الطريق. أذكر بوضوح شديد ثلاث دراجات محطمة في كومة مسحوقة على الطريق بفعل عجلات العربات المتتالية. عبرنا جسر «ريتشموند بريدج» نحو الثامنة والنصف. بالطبع أسرعنا الخطى ونحن نعبر الجسر المكشوف، لكني لاحظت عددًا من تكتلات حمراء اللون تطفو على الماء في اتجاه التيار على بعد عدة أمتار في الجانب المقابل. لم أكن أعرف ماهية تلك التكتلات — ولم يكن لدي وقت لتدقيق النظر — وألحقتُ بها تفسيرات مرعبة أكثر مما كانت تستحق. هنا أيضًا في «سَري» شوهد الغبار الأسود الذي كان دخانًا فيما مضى، وأيضًا الجثث؛ كومة منها بالقرب من المحطة، لكننا لم نر أثرًا للمريخيين حتى قطعنا جزءًا من الطريق نحو «بارنز».

رأينا على مسافة بعيدة — والسواد يكتنف الأجواء — مجموعة من ثلاثة أشخاص يركضون في شارع جانبي نحو النهر، لكن فيما عدا ذلك بدا المكان مهجورًا. كانت «ريتشموند» تحترق عن آخرها، ولم يكن هناك أي أثر للدخان الأسود خارج المدينة.

فجأة، ومع اقترابنا من بلدة «كيو»، جاء عدد من الناس يركضون، ولاح الجزء العلوي لواحدة من آلات القتال التي يستخدمها المريخيون فوق أسطح المنازل على بعد أقل من مائة متر منا. وقفنا مبهوتين من الشعور بالخطر، ولو أن المريخي نظر أسفله لكنَّا في عداد الهالكين على الفور. بلغ بنا الذعر كل مبلغ حتى إننا عجزنا عن مواصلة السير، وانحرفنا جانبًا، واختبأنا في سقيفة إحدى الحدائق. وهناك جثم الكاهن على الأرض، وأخذ يبكي دون صوت رافضًا التحرك مجددًا.

لكن عزمي القاطع على الوصول إلى «ليذرهيد» لم يترك أمامي مجالًا للتوقف، وفي ضوء الشفق غامرت بالخروج مرة أخرى. سرت وسط مجموعة من الشجيرات وعلى طول ممر بجانب منزل كبير، وهكذا خرجت على الطريق المؤدي إلى «كيو». تركت الكاهن في السقيفة، لكنه جاء يركض خلفي.

تلك الانطلاقة الثانية كانت أكثر ما فعلته طيشًا؛ إذ كان واضحًا أن المريخيين موجودون حولنا. وما إن لحق بي الكاهن حتى رأينا آلة القتال التي رأيناها من قبل أو أخرى شبيهة بها بعيدًا عبر المروج في اتجاه «كيو لودج». ركضت أربعة أو خمسة هياكل سوداء صغيرة أمامها عبر الحقل الذي جمع بين اللونين الأخضر والرمادي، وفي دقيقة بدا واضحًا أن ذلك المريخي يتعقبهم. في ثلاث خطوات واسعة كان المريخي بينهم، في حين أخذوا هم يركضون متسللين من بين أقدامه في جميع الاتجاهات. لم يُستخدم الشعاع الحراري للقضاء عليهم، لكنه التقطهم واحدًا بعد آخر. وعلى ما يبدو أنه ألقى بهم داخل الحامل المعدني الكبير الذي يبرز من خلفه كسلَّة عامل معلقة على كتفيه.

تلك هي المرة الأولى التي أدرك فيها أنه ربما يكون للمريخيين غرض آخر سوى إلحاق الدمار بالبشرية المقهورة. وقفنا متسمِّرين في مكاننا هنيهة، ثم استدرنا وفررنا عبر بوابة خلفنا إلى حديقة مسيَّجة، ووجدنا قناة رقدنا فيها دون أن يجرؤ أحدنا على أن يهمس للآخر حتى طلعت النجوم.

أظن أن الساعة كانت تقترب من الحادية عشرة عندما استجمعنا شجاعتنا للانطلاق مجددًا، وبعدها لم نغامر بالسير في الطريق، بل كنا نتسلل بمحاذاة سياجات الشجيرات وعبر الزروع ونحن نراقب المكان بحذر — هو على اليمين وأنا على اليسار — وسط الظلام بحثًا عن المريخيين الذين بدا أنهم كانوا ينتشرون في كل مكان. في إحدى البقاع تعثرنا بمنطقة محروقة مسودَّة — كانت حينئذ تبرد وتستحيل رمادًا — وعدد من جثث مبعثرة لأناس مصابين بحروق مروعة في الرءوس والجذوع، غير أن أقدامهم وأحذيتهم كادت لا تمس بسوء، وجثث خيول خلف صف يضم أربعة مدافع مدمَّرة وعربات مدافع محطمة ربما بمسافة خمسة عشر مترًا.

يبدو أن ضاحية «شين» أفلتت من الدمار، لكن المكان كان ساكنًا ومهجورًا. هنا لم نر أي جثث، وإن كان الليل بظلمته الحالكة لم يتح لنا رؤية شيء في الطرق الجانبية للمكان. وفي «شين» اشتكى مرافقي فجأة من الإعياء والظمأ، وقررنا دخول أحد المنازل.

أول منزل دخلناه — بعد أن وجدنا صعوبة بسيطة في فتح النافذة — كان منزلًا ريفيًّا صغيرًا نصف منفصل، ولم أجد فيه ما يصلح للأكل سوى بعض الجبن المتعفن. لكن كانت هناك مياه صالحة للشرب، وأخذت معي بلطة صغيرة خيل لي أنها ستفيدنا في اقتحام المنزل التالي.

انتقلنا بعدها إلى مكان ينعطف فيه الطريق نحو ضاحية «مورتليك». وهناك رأينا منزلًا أبيض داخل حديقة محاطة بالأسوار، وفي خزانة المؤن الخاصة بهذا المنزل وجدنا

الكثير من الطعام؛ رغيفين من الخبز في مقلاة، وشريحة لحم نيئة، وقطعة من لحم الخنزير المدخن. أذكر قائمة الطعام تلك على هذا النحو من الدقة، لأنه حدث أن تعيَّن علينا الاعتماد على ذلك الطعام مدة أسبوعين تاليين. وجدنا جعة أسفل أحد الأرفف، وكيسين من الفاصولياء وبعض الخس ضامر الأوراق. تفتح هذه الخزانة على مطبخ بداخله وقود لإشعال النيران، وكانت هناك أيضًا خزانة وجدنا فيها نحو اثنتي عشرة قنينة من خمر «بورجوندي»، وسمك السلمون، وحساء معلبًا، وعلبتين من البسكويت.

جلسنا في المطبخ المجاور في الظلام — لأننا لم نكن نجرؤ على إشعال الضوء — وتناولنا الخبز ولحم الخنزير، وشربنا الجعة من الزجاجة نفسها. كان الكاهن لا يزال مرتاعًا متململًا لا يقوى على مواصلة السير على نحو يدعو إلى الذهول، وكنت أحثه على الحفاظ على قوته بتناول الطعام عندما وقع الحادث الذي انحبسنا في إثره.

قلت: «مؤكد أن منتصف الليل لم يحل بعد.» ثم طغى وهج ساطع من ضوء أخضر براق. ظهر كل شيء في المطبخ واضحًا تمامًا باللونين الأخضر والأسود ثم اختفى ثانية. وبعدها حدثت هزة لم أسمع مثلها قبل ذلك الحين أو بعده. وعقب تلك الهزة بوقت قليل جدًّا — حتى بدا وكأنه قد حدث على الفور — صدر صوت هدير من خلفي، وانكسار زجاج، وانهيار أجزاء من المبنى في كل مكان حولنا، وسقط جبس السقف ليتهشم إلى عدة أجزاء صغيرة فوق رءوسنا. اصطدمت بالأرض على الفور قبالة مقبض الموقد، وانتابني الذهول. أخبرني الكاهن أني فقدت الوعي وقتًا طويلًا، وعندما استعدت وعيي كان الظلام يحيط بنا ثانية، وكان الكاهن يرش الماء عليّ ووجهه مبلل بالدماء من أثر جرح في جبهته مثلما عرفت لاحقًا.

بقيت بعض الوقت عاجزًا عن استيعاب ما حدث، ثم بدأت أسترجع الأحداث تدريجيًّا. شعرت بوجود كدمة على صدغي.

سأل الكاهن بصوت هامس: «أتشعر بتحسن؟»

وأخيرًا أجبته بأن اعتدلت في جلستي.

قال: «لا تتحرك. الأرضية مغطاة بآنية خزفية مهشمة من خزانة المطبخ. لن تستطيع التحرك ما لم تُحدث ضوضاء، وأظن أنهم في الخارج.»

جلس كلانا في صمت مطبق، نكاد لا يسمع أحدنا أنفاس الآخر. خيَّم السكون التام على كل شيء، لكن حدث مرة أن انزلق بالقرب منا شيء — بعض الدهان أو مواد البناء المكسورة — محدثًا صوتًا مدويًّا. وفي الخارج على مسافة قريبة جدًّا كنا نسمع أصوات قعقعة رنَّانة متقطعة.

قال الكاهن عندما سمعنا الصوت مجددًا بعد وقت قصير: «ذاك!»

قلت: «أجل، لكن ما هذا؟»

قال الكاهن: «مريخي!»

أنصتُّ السمع مجددًا.

قلت: «لم يكن ذلك مثل الشعاع الحراري.» ولبعض الوقت كنت أميل إلى الاعتقاد بأن إحدى آلات القتال الضخمة تعثرت في المنزل، لأني كنت قد رأيت إحداها يتعثر في برج كنيسة «شيبرتون».

كان الموقف غريبًا مبهمًا حتى إننا كدنا لا نتحرك مدة ثلاث أو أربع ساعات حتى طلوع الفجر. ثم تسلل الضوء إلى الداخل؛ ليس من خلال النافذة التي ظلت سوداء، بل من خلال فتحة مثلثة الشكل بين إحدى العوارض وكومة من القرميد المكسور في الحائط خلفنا. وللمرة الأولى رأينا الجزء الداخلي للمطبخ بلون باهت.

انفتحت النافذة بفعل كتلة من تربة الحديقة اندفعت فوق الطاولة التي كنا نجلس عليها واستقرت عند أقدامنا. في الخارج كانت التربة تتجمع في كومة عالية أمام المنزل. ومن أعلى إطار النافذة استطعنا أن نرى أنبوب صرف منزوعًا من مكانه. كانت الأرضية مغطاة بآنية متهشمة، والجانب البعيد من المطبخ ناحية المنزل قد تعرض للاقتحام عنوة. وبما أن ضوء النهار يظهر هناك، فمن المؤكد أن جزءًا كبيرًا من المنزل قد تهدَّم. وفي تناقض واضح مع ذلك الدمار، ظهرت خزانة الأواني المرتَّبة مطلية وفق أحدث طراز بلون أخضر فاتح، وفي مستوى أدنى استقر عدد من أواني القصدير والنحاس، وكان ورق الحائط شبيهًا بقرميد يتخذ اللونين الأزرق والأبيض، فضلًا عن وجود جزأين مكمِّلين ملونين معلَّقين على الجدار فوق الموقد.

عندما اشتد ضوء الفجر، رأينا من خلال الفجوة في الحائط جسد مريخي أظنه كان يقف حارسًا على الأسطوانة المتوهجة الساكنة. عندما شاهدنا ذلك تسللنا بأقصى درجات الحذر الممكنة بعيدًا عن الشفق الذي ملأ المطبخ إلى الظلمة التي كانت تغلف حجرة غسل الآنية.

وفجأة خطر ببالي التفسير الصحيح لما حدث.

همستُ: «الأسطوانة الخامسة! الطلقة الخامسة من المريخ ضربت هذا المنزل ودفنتنا تحت أنقاضه!»

ظل الكاهن صامتًا بعض الوقت ثم همس: «ليرحمنا الرب!»

سمعته بعدها بقليل يئن بصوت مكتوم.

فيما عدا ذلك الصوت، خيم علينا الصمت التام داخل حجرة غسل الآنية، ومن جانبي كدت لا أجرؤ على التنفس، فجلست وعيناي مثبتتان على الضوء الخافت عند باب المطبخ. استطعت أن أرى وجه الكاهن بيضاويًّا شاحبًا، وياقته، وطرفي كُمَّيه. وفي الخارج بدأت أصوات طرق رنانة، تبعها صوت صفير حاد، وبعدها بفترة طويلة علا صوت هسيس يشبه أصوات المحركات. استمرت تلك الجلبة — المثيرة للريبة في الأغلب — على فترات متقطعة، بل بدا أنها تزداد في العدد مع مرور الوقت. بعدها بوقت قصير بدأ صوت هدير منضبط الإيقاع، وحدثت هزَّة جعلت كل شيء حولنا يرتجف والأواني داخل الخزانة تحدث صوت رنين وتتحرك من مكانها، وهو ما استمر حينًا. خفت الضوء في لحظة، وأصبح مدخل المطبخ مظلمًا تمامًا. ولعدة ساعات بقينا جاثمين هناك في صمت وكلانا يرتجف إلى أن خبت جذوة انتباهنا …

أخيرًا وجدت نفسي منتبهًا أشعر بالجوع الشديد. أظن أن جزءًا كبيرًا من اليوم كان قد انقضى قبل تلك الانتباهة. بلغ بي الجوع مبلغًا جعلني أتحرك كي أفعل شيئًا. أخبرت الكاهن أني سأذهب للبحث عن طعام، وتحسست طريقي نحو خزانة المؤن. لم يجبني، لكن ما إن بدأت تناول الطعام ووصلتْه الضوضاء الخافتة التي أحدثتُها حتى تحرك، وسمعته يزحف ببطء خلفي.

الفصل الثاني

ما رأينا من خلال المنزل المنهار

بعد تناول الطعام انسللنا عائدين إلى حجرة غسل الآنية، ولا بد أني غفوت هناك مرة أخرى، لأني عندما نظرت بعدها بوقت قصير حولي، وجدت نفسي وحيدًا. استمرت الهزة الهادرة على نحو ثابت يبعث على الضجر. همست مناديًا على الكاهن عدة مرات، وفي النهاية تحسست طريقي نحو باب المطبخ. لا يزال ضوء النهار يعلن عن نفسه، ولمحت الكاهن في الجانب الآخر من الغرفة يرقد مستندًا على الفتحة المثلثة التي تطل على المريخيين. كانت كتفاه مُحدودبتين حتى إنني لم أر رأسه.

وصل إلى مسامعي عدد من الأصوات تكاد تشبه ما يُسمع من أصوات في حظيرة القاطرات، وارتج المكان بفعل ذلك الهدير المتواصل. ومن خلال الفتحة في الجدار، استطعت أن أرى قمة شجرة بها مسحة من لون ذهبي، إلى جانب زرقة سماء الليل الساكنة. ظللت نحو دقيقة أرقب الكاهن، ثم تقدمت جاثمًا على الأرض أتحرك بحذر بالغ وسط الأواني الخزفية المكسورة التي تغطي الأرضية.

لمست قدم الكاهن، فانتفض من مكانه في حركة عنيفة للغاية حتى إن كتلة من الجبس انزلقت من الخارج وسقطت محدثة صوتًا عاليًا. قبضت على ذراعه خشية أن يصرخ، وربضنا بلا حراك وقتًا طويلًا. بعدها استدرت لأرى كم تبقى من الساتر الذي كنا نحتمي خلفه. أحدثَ تساقط الجبس صدعًا رأسيًّا وسط الأنقاض، وعندما رفعت نفسي بحذر مقابل إحدى العوارض استطعت أن أرى من تلك الفتحة المكان الذي كان بالأمس طريقًا هادئًا. والواقع أن التغيير الذي رأيناه كان هائلًا.

لا بد أن الأسطوانة الخامسة سقطت مباشرة في منتصف المنزل الذي دخلناه أول مرة. اختفى المبنى، وانهار بالكامل، وانسحق وتبدد من أثر الاصطدام. تستقر الأسطوانة الآن على مسافة كبيرة تحت قواعد المنزل؛ في عمق كوة أكبر اتساعًا من الحفرة التي

كنت قد رأيتها في «ووكينج». تناثرت التربة في كل مكان حول الكوة إثر ذلك الاصطدام المهول، وكوَّنت كومات متراكمة أخفت المنازل المجاورة عن الأنظار. بدت الأرض حينها وكأنها وحل طُرق عليه طرقات عنيفة. انهار المنزل الذي كنا فيه إلى الخلف؛ وتهدم الجانب الأمامي — حتى في الطابق الأرضي — تمامًا، وبطريق المصادفة نجت حجرتا المطبخ وغسل الآنية من الانهيار، وبقيتا الآن مدفونتين تحت الأنقاض تحيط بهما أطنان من التربة من كل جانب عدا الجانب المواجه للأسطوانة. وبذلك كنت أنا والكاهن عالقين الآن على شفير الحفرة الدائرية الواسعة التي كوَّنها المريخيون. كان صوت الطرق المدوي واضحًا خلفنا مباشرة، وبين الحين والآخر كان بخار أخضر لامع يتصاعد وكأنه ستار أمام الفتحة التي كنا نختلس النظر منها.

كانت الأسطوانة مفتوحة بالفعل في مركز الحفرة، وعلى الحافة البعيدة من الحفرة وسط الشجيرات المسحوقة والمغطاة بأكوام من الحصى، برزت واحدة من آلات القتال الضخمة — بعد أن هجرها قاطنوها — منتصبة وطويلة قبالة سماء الليل. في البداية لم ألحظ الحفرة والأسطوانة — وإن كان الأنسب وصفهما أولًا — بسبب الآلة فائقة البريق التي كانت منكبَّة على أعمال الحفر، وبسبب الكائنات الغريبة التي كانت تزحف في تؤدة ومشقة على التربة المتكومة بالقرب منها.

مؤكد أن الآلة هي أول ما لفت انتباهي. كانت واحدة من تلك الآلات المعقدة التي يُطلق عليها منذ ذلك الحين آلات قابضة، والتي كانت دراستها باعثًا كبيرًا على ما كان من اختراعات على كوكب الأرض. ومثلما تبادرت إلى ذهني في البداية، فقد كانت تشبه عنكبوتًا معدنيًّا لديه خمس أقدام رشيقة ذات مفاصل، وعدد هائل من الروافع المفصلية والقضبان ومجسات ممتدة وقابضة حول هيكل الآلة. كانت معظم أذرعها مقبوضة، لكن باستخدام ثلاثة مجسات طويلة كانت تلتقط عددًا من القضبان والصفائح التي تبطن غطاء الأسطوانة والتي كانت على ما يبدو تدعم جدرانها. وعندما تُنتزع تلك الأشياء، كانت تُرفع وتوضع فوق سطح مستو على الأرض خلف الآلة.

كانت حركتها بالغة السرعة والتعقيد والإتقان، حتى إنني لم أعتقد أنها آلة في بادئ الأمر بالرغم من لمعانها البراق. كانت آلات القتال متناسقة بعضها مع بعض ومفعمة بالحيوية إلى أقصى درجة ممكنة، لكنها لم تكن لتقارَن بتلك الآلات. هؤلاء الذين لم تسبق لهم رؤية تلك الهياكل ولم يتوفر لديهم سوى اجتهادات الرسَّامين منقوصة الخيال، أو الوصف المعيب لشهود العيان مثلي الذين نادرًا ما يستوعبون طابع الحيوية ذاك.

أذكر على وجه الخصوص وصفًا ورد في واحد من أوائل الكتيبات التي قدمت وصفًا تتابعيًّا للحرب. كان واضحًا أن الرسام جمع معلوماته عن آلات القتال في عجالة، وهنا كانت نهاية إلمامه بها. صوَّر الرسام تلك الآلات على أنها حاملات ثلاثية القوائم متقوسة ومتيبسة تفتقر إلى المرونة والفطنة، إلى جانب رتابة مخادعة تمامًا فيما يتعلق بتأثيرها. حظي الكتيب الذي تضمن تلك الأوصاف رواجًا كبيرًا، ومدعاة ذكري له هنا هي تحذير القارئ من الانطباع الذي ربما يكون قد تكوَّن لديه. أولئك الذين وردت أوصافهم في الكتيِّب لم يكن بينهم وبين المريخيين الذين رأيتهم على أرض الواقع شبه أكثر مما يكون بين الدمى والبشر.

في البداية لم تترك الآلة القابضة انطباعًا لدي على أنها آلة، بل مخلوق أشبه بالسرطان ذو غلاف خارجي لامع، في حين بدا المريخي الذي يتحكم بمجساته الدقيقة في تحركات الآلة شبيهًا بالجزء الدماغي لدى السرطان. لكني بعدها أدركت تشابه غلافها الخارجي الجلدي اللامع ذي اللون البني المائل إلى الرمادي مع الأجسام الأخرى الممددة أرضًا على مسافة، واتضحت في ذهني الماهية الفعلية لذلك الصانع الحذِق. ما إن أدركت ذلك حتى تحول اهتمامي إلى الكائنات الأخرى؛ المريخيين الفعليين. لدي انطباع عابر مسبق عنهم، ولم يعد شعور الغثيان الذي كان يراودني تجاههم في بادئ الأمر يؤثر سلبًا على ملاحظتي لهم. أضف إلى ذلك أني كنت مختبئًا بلا حراك، فلم تكن هناك حاجة ملحة للتحرك.

كانوا أكثر المخلوقات التي يمكن تخيلها غرابةً؛ أجسام — أو بالأحرى رءوس — دائرية ضخمة يزيد قطر كل منها عن المتر قليلًا، وكل جسم به وجه في الجانب الأمامي. لم يكن ثمة منخار في ذلك الوجه؛ الحقيقة أن المريخيين بدوا وكأنهم يفتقرون إلى حاسة للشم، لكن كانت هناك عينان سوداوان بالغتا الاتساع، وأسفلها مباشرة ما يشبه منقارًا لحميًّا. في ظهر تلك الرأس أو الجسد — لا أدري كيف أطلق عليه — كان السطح الطبلي الوحيد الثابت الذي عُرف تشريحيًّا منذ ذلك الحين بأنه أُذن، مع أنه من المؤكد أن تلك الأذن كادت تكون عديمة الجدوى في ظل هوائنا الكثيف على الأرض. حول الفم كانت توجد مجموعة من ستة عشر مجسًّا رفيعًا تكاد تشبه السياط مرتبة في حزمتين كل منها تضم ثمانية مجسات. وصف عالم التشريح المتميز بروفيسور هاوس بجدارة بالغة تلك المجسات بأنها أيادٍ. عندما رأيت هؤلاء المريخيين أول مرة بدا أنهم يحاولون الوقوف فوق تلك الأيادي، لكن كان ذلك مستحيلًا بالطبع بسبب الوزن الزائد في ظل الظروف

على كوكب الأرض. ومنطقي أن نفترض أنهم ربما يستخدمون تلك الأيادي في السير على كوكب المريخ بقدر من السهولة.

يجدر بي الإشارة هنا إلى أن التكوين الداخلي — مثلما أظهر التشريح فيما بعد — كان على القدر نفسه من البساطة تقريبًا. كان الدماغ هو الجزء الأكبر من الهيكل تخرج منه أعصاب مهولة إلى العينين والأذن والمجسات الحسية. وإضافة إلى ذلك كانت هناك رئة واسعة يفتح فيها الفم، فضلًا عن القلب وأوعيته. بدا الألم الرئوي الذي حدث بسبب زيادة كثافة الغلاف الجوي والجاذبية واضحًا للغاية في الحركات المتشنجة التي كانت تصدر عن البشرة الخارجية.

كانت تلك هي الأجهزة التي تكون أجسام المريخيين. ومع أن الأمر قد يبدو غريبًا على بني البشر، فإن جميع أجهزة الهضم المعقدة — التي تسهم بقدر كبير في وزن الجسم — لم تكن موجودة لدى المريخيين. كانوا رءوسًا؛ مجرد رءوس. لم يكن لديهم أمعاء. لم يكونوا يأكلون، وبالطبع لم يكونوا يهضمون. بدلًا من ذلك كانوا يأخذون الدماء الحية من المخلوقات الأخرى ويضخونها داخل أوردتهم. رأيت ذلك بنفسي، وسوف أتحدث عنه في موضعه. لكن لأني سريع الإصابة بالغثيان، فلن أستطيع حمل نفسي على وصف ما لم أتحمل مجرد الاستمرار في مشاهدته. سأكتفي بأن أقول إن الدماء تؤخذ من كائن حي هامد — في معظم الحالات يكون إنسانًا — لتنساب مباشرة بواسطة أنبوب صغير داخل القناة المستقبِلة …

لا شك أن مجرد التفكير في هذا الأمر يثير اشمئزازنا إلى أقصى حد، لكن في الوقت نفسه أظن أنه علينا أن نتذكر كم أن عاداتنا الخاصة بتناول اللحوم قد تبدو مثيرة للاشمئزاز في نظر أرنب ذكي.

المزايا الفسيولوجية المرتبطة بعملية الحقن هذه أمر لا جدال فيه، إذا فكرنا في ما يهدره البشر من كميات هائلة من الوقت والطاقة في عمليتي تناول الطعام والهضم. تتكون أجسامنا في الأغلب من غدد وقنوات وأعضاء مهمتها تحويل الأطعمة المختلفة إلى دماء. عمليات الهضم وتأثيرها على الجهاز العصبي تضعف قوانا وتشوه عقولنا. فسعادة الإنسان أو تعاسته ترتبط بصحة كبده أو اعتلاله، وبصحة غدده المِعديّة. أما المريخيون فقد ارتقوا فوق كل تلك التقلبات العضوية المرتبطة بالحالة المزاجية والشعورية.

يتضح تفضيلهم المؤكد للبشر كمصدر للحصول على الغذاء إلى حد ما من خلال طبيعة بقايا الضحايا الذين أتوا بهم من المريخ ليتغذوا عليهم. كانت لتلك المخلوقات

— من خلال الحكم عليها من البقايا الضامرة التي وقعت في أيادي البشر — قدمان، وهياكل عظمية سليكية رقيقة (تكاد تشبه الإسفنجيات السليكية)، وجهاز عضلي يبلغ طوله نحو مترين، ورءوس مستديرة منتصبة، وعينان واسعتان داخل مَحجِرين قاسيين. أحضر المريخيون اثنين أو ثلاثة من تلك المخلوقات في كل أسطوانة، وجميعهم قُتلوا قبل وصولهم الأرض. كان هذا من حسن حظهم، لأن مجرد محاولة وقوفهم منتصبين على كوكبنا كان من شأنه أن يكسر كل عظمة في أجسادهم.

وأنا أتطرق لذلك الوصف، سأضيف في هذا الموضع تفاصيل أخرى محددة تمكِّن القارئ — مع أنها لم تكن واضحة لنا تمامًا في وقتها — غير الملم بها من أن يكوِّن صورة واضحة عن تلك المخلوقات القبيحة.

كانت طبيعتهم الفسيولوجية تختلف عنا على نحو غريب في ثلاثة جوانب أخرى. لم تكن أجهزتهم العضوية تعرف النوم، مثلما هو الحال مع قلوب البشر. ولأنه لم يكن لديهم جهاز عضلي يحتاج إلى التعافي بعد الإجهاد، فإن الخمود الذي يصيب البشر على فترات متقطعة لم يكن معروفًا لهم. من الواضح أنهم لم يشعروا بالتعب. ومع أنهم لم يكونوا يتحركون على الأرض دون بذل جهد، فإنهم استمروا في العمل حتى النهاية. كانوا يعملون أربعًا وعشرين ساعة على مدار اليوم، ربما كما هو الحال مع النمل على سطح الأرض.

الأمر الثاني — وهو ما يبدو مدعاة للعجب في عالم يقوم على النشاط الجنسي — أن المريخيين لم يكونوا متباينين في الجنس، ومن ثم لم تكن لديهم أي مشاعر جامحة كالتي تنشأ جراء ذلك التباين بين بني البشر. حدث بالفعل أن وُلد مريخي صغير — ذاك أمر مؤكد الآن — فوق سطح الأرض أثناء الحرب، ووُجد موصولًا بأبيه؛ متبرعمًا إلى حد ما مثلما تتبرعم بصْلات الزنبق أو مثلما تتبرعم الحيوانات الصغيرة في المياه العذبة.

في الإنسان، وفي جميع الحيوانات الأرضية العليا، اندثرت طريقة التكاثر هذه، وحتمًا كانت تلك هي الطريقة البدائية على هذه الأرض. وبين الحيوانات الدنيا — حتى تلك الشبيهة بالحيوانات الفقارية مثل شعبة الزِّقيات — تحدث العمليتان جنبًا إلى جنب، لكن الطريقة الجنسية حلت أخيرًا محل منافِستها تمامًا. أما على كوكب المريخ فمن الواضح أن العكس هو ما حدث.

جدير بالذكر أن كاتبًا يشتهر بكتاباته التأملية شبه العلمية — كان يكتب قبل وقت طويل من غزو المريخيين — تنبأ للإنسان بهيكل نهائي لا يختلف عن حال المريخيين

الفعلي. أذكر أن نبوءته ظهرت في شهر نوفمبر أو ديسمبر من عام ١٨٩٣ في مجلة توقف صدورها منذ زمن طويل واسمها «بال مال بادجيت»، وأذكر أيضًا رسمًا كاريكاتوريًّا عن ذلك في مجلة «بانش» التي كانت تصدر قبل غزو المريخيين. أشار هذا الكاتب — في لهجة هزلية سخيفة — أن بلوغ حد الإتقان للأدوات الآلية سيقضي على أطراف الإنسان في النهاية، وأن بلوغ حد الإتقان للأجهزة الكيميائية سيلغي عملية الهضم، وأن أعضاء كالشعر والأنف والأسنان والأذن والذقن لن تكون أساسية في الكائن الحي، وأن نزعة الانتخاب الطبيعي ستسير في اتجاه ضمور هذه الأعضاء بصفة ثابتة على مر العصور المقبلة. الدماغ وحده هو الذي سيبقى ضرورة لا غنى عنها. جزء آخر فقط من أجزاء الجسم سيحظى بسبب قوي للبقاء وهي اليد؛ ذلك أنها هي التي توجِّه الدماغ وهي أيضًا أداته. وبينما يضمر بقية الجسد، يتزايد حجم الأيدي.

كم من جدٍّ في ثوب مزاح! لا جدال في أن المريخيين هنا قد انتهوا بالفعل من القضاء على الجانب الحيواني في الجسم بالعقل. ولا مشكلة لديّ في أن أصدق أن المريخيين ربما ينحدرون من كائنات لا تختلف عنا عن طريق تطور تدريجي للمخ والأيدي (حيث أدت الأيدي إلى ظهور مجموعتي المجسات الرقيقة في النهاية) على حساب بقية أجزاء الجسم. ومن دون الجسد، سيصبح المخ مجرد عقل أناني بلا أي درجة من درجات الشعور التي يتمتع بها الكائن الحي.

النقطة الأخيرة اللافتة للنظر فيما يتعلق باختلاف أجهزة تلك الكائنات عنا كانت تكمن في تفصيلة ربما يعتبرها أحد محض تفاهة. فالميكروبات — التي تجلب الكثير من الأمراض والألم على كوكب الأرض — إما أنها لم تظهر قط على سطح المريخ، أو أن العلوم الصحية لدى المريخيين قضت عليها منذ عهود مضت. لم ترِد مئات الأمراض — كل أنواع الحمى والأمراض المعدية بين البشر، والسل، والأمراض السرطانية، والأورام وما شابه من الأمراض — قط في قاموس حياتهم. وبالحديث عن أوجه التباين بين الحياة على المريخ والحياة على الأرض، ربما يتعين علي الإشارة هنا إلى العشب الأحمر.

من الواضح أن مملكة النباتات في المريخ تتخذ من الأحمر القاني لونًا لها، بدلًا من سيادة اللون الأخضر. وعلى أي حال، فإن البذور التي جلبها المريخيون (سواء عن عمد أو مصادفة) نمَت في جميع الحالات وتحولت إلى نباتات ذات لون أحمر قان. لكن وحده النبات الذي اشتُهر بين الناس باسم العشب الأحمر هو ما وجد لنفسه موضع قدم بين النباتات الأرضية. كان العشب الأحمر سريع الزوال، وقلة من الناس رأته ينمو. لكن

لفترة ما، نما ذلك العشب الأحمر المتعرش بوفرة وغزارة تثيران الذهول. انتشر العشب على جوانب الحفرة بعد مرور ثلاثة أو أربعة أيام على حصارنا، وكوَّنت فروعه الشبيهة بنبات الصبار هُدبًا قرمزيًّا على أطراف نافذتنا المثلثة. وبعد ذلك وجدُته وقد انتشر في كل أرجاء البلدة، وحيثما وُجد مجرى مياه على وجه الخصوص.

كان لدى المريخيين ما بدا أنه عضو سمعي — طبلة مستديرة وحيدة في مؤخرة الجسد الذي يتخذ شكل الرأس — وعيون ذات مدى بصري لا يختلف كثيرًا عن مدانا البصري، فيما عدا أن الأزرق والبنفسجي كانا يبدوان لهما كاللون الأسود. شاع بين الناس أن المريخيين يتواصلون عن طريق الأصوات والإيماء بالمجسات، وهو ما جرى التأكيد عليه على سبيل المثال في الكتيِّب الجيد الذي قد جُمع في عجالة (من الواضح أن من كتبه لم يكن شاهد عيان على أفعال المريخيين) والذي أشرت إليه من قبل، وهو — حتى الآن — المصدر الرئيسي للمعلومات المتعلقة بهم. لم ير أحد من البشر الأحياء قدر ما رأيت من تحركات المريخيين. لا أدعي لنفسي شرفًا لمجرد حادث وقع لي، لكنها الحقيقة. وأؤكد أني شاهدتهم عن كثب مرارًا وتكرارًا، وأني رأيت أربعة وخمسة و(ذات مرة) ستة منهم يتحركون بخطى متثاقلة وهم يؤدون أكثر العمليات تعقيدًا بعضهم مع بعض دون أن يصدر عنهم صوت أو إيماءة. كان نعابهم المميز يسبق دومًا حصولهم على الغذاء؛ لم يكن ثمة تغير في طبقات هذا الصوت، وأظن أنه لم يكن إشارة على الإطلاق، بل مجرد زفر للهواء تمهيدًا لعملية المصّ. لديَّ معرفة أولية بعلم النفس، وفي هذا الشأن لدي قناعة — قاطعة كقناعتي بأي شيء آخر — أن المريخيين كانوا يتبادلون الأفكار دون أي وسيط مادي. تكونت لدي تلك القناعة بالرغم من الأفكار الراسخة المبلورة مسبقًا. قبل غزو المريخيين — مثلما قد يتذكر قارئ عابر هنا أو هناك — كنت قد كتبت نقدًا حادًّا بعض الشيء لنظرية توارد الخواطر.

لم يرتد المريخيون ملابس. كانت مفاهيمهم عن الزينة والاحتشام تختلف بالضرورة عن مفاهيمنا، ولم يكونوا أقل تأثرًا بالتغيرات في درجات الحرارة عنا فحسب، بل بدا أن تغيرات الضغط أيضًا لا تؤثر في صحتهم تأثيرًا يُذكر. وعلى الرغم من عدم ارتدائهم للملابس، فإن الإضافات الاصطناعية الأخرى المتصلة بأجسادهم هي مكمن تفوقهم الهائل على بني البشر. نحن البشر — بما لدينا من دراجات وألواح تزلج، وآلات تحليق، ومدافع وعصيّ وغيرها — لا نزال نخطو أولى خطواتنا في طريق التطور الذي بلغه المريخيون. الواقع أنهم أصبحوا مجرد عقول ترتدي أجسادًا وفق حاجتها، مثلما يرتدي

الإنسان ثيابه ويصطحب دراجة إذا كان في عجلة من أمره أو مظلة إذا كان اليوم مطيرًا. وبالحديث عن أجهزتهم، فإن أكثر ما قد يثير الدهشة حقيقة أن السمة التي تكاد تميز جميع الأجهزة الآلية لم تكن موجودة لديهم؛ فالمريخيون لم يستخدموا العجلة. فمن كل الأشياء التي جلبوها معهم إلى كوكب الأرض، لم يكن هناك أي أثر أو دلالة على استخدامهم العجلات. ربما يتوقع المرء وجودها على الأقل في التنقل. وفي هذا الصدد من الغريب أن نشير إلى أنه حتى على سطح هذه الأرض لم يحدث قط أن اكتشفت «الطبيعة» العجلةَ فجأة، أو فضَّلت وسائل أخرى عليها. لم يقتصر الأمر على كون المريخيين إما لا يعرفون العجلة (وهو ما لا يمكن تصديقه) وإما أحجموا عن استخدامها، بل تعدى الأمر ذلك، فنادرًا ما كانت أجهزتهم تستخدم محور الارتكاز الثابت أو محور الارتكاز الثابت نسبيًّا عند الحركة الدائرية المنحصرة في سطح واحد. فكل مفاصل الآلات تقريبًا كانت تمثل نظامًا معقدًا من أجزاء منزلقة تتحرك فوق مساند مقاومة للاحتكاك صغيرة وإن كانت مقوَّسة على نحو بديع. ومن الجدير بالذكر هنا أيضًا أن قوى الرفع في آلاتهم كانت تُستثار في أغلب الحالات بواسطة شيء أشبه بجهاز عضلي زائف من الأقراص داخل غلاف لدِن؛ تلك الأقراص تُستقطب وتُقرَّب بعضها من بعض أثناء دورانها بفعل تيار كهربائي. كان هذا مصدر تشابه حركتهم اللافت للنظر مع حركة الحيوانات؛ الأمر الذي كان البشر ينظرون إليه بمزيج من الدهشة والانزعاج. توافرت تلك العضلات الزائفة بكثرة في الآلة القابضة الشبيهة بالسرطان التي شاهدتها تفرغ محتويات الأسطوانة عندما نظرت من الفتحة أول مرة. بدت الآلة مفعمة بالحيوية أكثر بكثير من المريخيين الفعليين الذين كانوا يرقدون على مسافة تحت شمس المغيب يلهثون ويحركون مجساتهم العاجزة، ويتحركون واهنين بعد رحلتهم الطويلة عبر الفضاء.

بينما كنت أشاهد تحركاتهم المتثاقلة في ضوء الشمس، وأرقب كل تفصيلة غريبة من هيئتهم، نبَّهني الكاهن إلى وجوده بأن جذبني من ذراعي بقوة. استدرت فرأيت وجهًا عبوسًا، وشفاهًا صامتة وإن كانت معبرة. كان يود النظر من الشق الذي يتيح الرؤية لواحد منا فحسب، وهكذا اضطررت للتخلي عن مشاهدتهم بعض الوقت ليحظى بتلك الميزة.

عندما نظرت مجددًا، كانت الآلة القابضة النشطة قد انتهت من تجميع العديد من القطع التي استخرجتها من الأسطوانة داخل هيكل شبيه بها تمامًا. وفي بقعة منخفضة على اليسار، ظهرت آلة حفر صغيرة نشطة تنبعث منها هبَّات من البخار الأخضر، وهي

تعمل حول الحفرة، تحفر وتطوق المكان بطريقة منظمة ودقيقة. تلك الآلة كانت مصدر الضوضاء الشبيهة بالطرقات المتتالية، والاهتزازات الإيقاعية التي دأبت على رجرجة ملجئنا المنهار. كانت تزمر وتصفر وهي تعمل. وبقدر ما أتيح لي من رؤية، لم يكن هناك مريخي يوجِّه ذلك الشيء على الإطلاق.

الفصل الثالث

أيام الحصار

اضطرَّنا وصول آلة القتال الثانية إلى مغادرة الفتحة التي كنا نختلس النظر منها والانتقال إلى حجرة غسل الآنية؛ خشية أن يرانا المريخي من مكانه المرتفع ونحن جالسان خلف الحاجز الذي كنا نلوذ به. وبعد فترة بدأنا نشعر بتضاؤل الخطر؛ لأنه من المؤكد أن مأوانا كان يبدو لأي عين في ضوء الشمس الساطع بالخارج سوادًا حالكًا، غير أنه في أول الأمر كانت أي إشارة على اقترابهم تجعلنا نهرع إلى حجرة غسل الآنية وكلانا يرتجف خوفًا. وعلى الرغم من الخطر الذي كنا نعرض أنفسنا له، فإن كلينا لم يستطع مقاومة غواية اختلاس النظر. وأذكر الآن في شيء من العجب أنه على الرغم من الخطر الهائل الذي كنا معرضين له ما بين التضور جوعًا أو الموت وهو الأشد خطورة، كنا نتنازع كثيرًا من أجل أن نحظى بميزة المشاهدة المروِّعة هذه. كنا نتسابق على نحو عجيب عبر المطبخ تتباين مشاعرنا ما بين اللهفة والفزع من إحداث جلبة، وكلانا يضرب الآخر ويدفعه ويركله على بعد بضع خطوات من الفتحة.

الحقيقة أن ميولنا وعاداتنا في التفكير والتصرف كانت متنافرة كل التنافر، والخطر الذي يحدق بنا والعزلة التي كنا فيها لم يفعلا شيئًا سوى أنهما أكَّدا على ذلك التنافر. عندما كنا في «هاليفورد» حدث أني كرهت اعتياد الكاهن الصراخ البائس إضافة إلى جمود عقله. كانت همهماته المتواصلة تفسد أي جهد أبذله للتفكير في خطة، وكادت في بعض الأحيان — بعدما كنت أصبح مكبوتًا محتدًّا — أن تدفعني نحو حافة الجنون. كان فاقد السيطرة على نفسه كامرأة حمقاء. كان يبكي ساعات، ولديّ يقين أن هذا الطفل المدلل ظل حتى النهاية يظن أن دموعه البائسة فعَّالة وأنها ستؤتي ثمارها بصورة أو بأخرى. كنت أجلس في الظلام عاجزًا عن التفكير في شيء آخر غيره بسبب إلحافه. تناول من الطعام أكثر مما تناولت، وقد نبَّهته دون جدوى أن فرصتنا الوحيدة

للحياة هي البقاء في هذا المنزل حتى ينتهي المريخيون من عملهم في الحفرة، وأنه قد يأتي علينا — أثناء تلك الفترة الطويلة من الانتظار — وقت نحتاج فيه إلى الطعام. كان يقضي أوقاتًا طويلة يتناول الطعام والشراب بنَهم، ولم يكن ينام إلا قليلًا.

مع مضي الأيام، زاد استهتاره التام بأي اعتبار من حدة ضائقتنا ومن الخطر الذي يحيق بي، حتى إني اضطررت — على مضض كبير مني — للجوء إلى التهديدات، وأخيرًا لجأت إلى ضربه. ذلك الأمر جعله يتعقل بعض الوقت، لكنه كان واحدًا من أولئك الضعاف، عديمي الأنفة، الرعاديد، فاتري الهمم، واسعي الحيلة الذين لا يقوون على مواجهة الرب أو البشر، أو حتى مواجهة أنفسهم.

تعفُّ نفسي عن تذكر تلك الأمور والكتابة عنها، لكنني ما أفعل ذلك إلا بغية اكتمال روايتي. إن مَن لم يروا شيئًا من كآبات الحياة وأهوالها لن يجدوا أي مشكلة في أن يلوموا وحشيتي ونوبات غضبي في مأساتنا الأخيرة، لأنهم يعرفون الخطأ كأي شخص آخر، لكنهم لا يعرفون ما قد يحدث للمعذَّبين من البشر. أما من تعرضوا لتلك الأهوال، فسيكونون أكثر قدرة على التسامح.

في الداخل كنا نتصارع وسط الظلام، ونتناحر بأصوات خفيضة، ونتخطف الطعام والشراب، ويكيل كلانا الضربات للآخر، وفي الخارج — في ضوء شمس يونيو الحارقة — كانت الأعجوبة المتمثلة في الأعمال الروتينية الغريبة للمريخيين داخل الحفرة تتواصل. لنعد إلى التجارب الجديدة التي مررت بها في بادئ الأمر. بعد وقت طويل خاطرت بالعودة إلى الفتحة حيث وجدت الوافدين الجدد وقد انضم إليهم ما لا يقل عن ثلاثة من مشغلي آلات القتال. أحضرت تلك الآلات الأخيرة معها معدات حديثة بعينها اصطفت في ترتيب منظم حول الأسطوانة. اكتملت الآلة القابضة الثانية حينئذ، وكانت مشغولة بخدمة إحدى الآلات الجديدة التي أحضرتها الآلة الكبيرة. كان هيكلًا يشبه علبة الحليب في شكله العام، وفوقه يتأرجح وعاء يشبه ثمرة الكمثرى، ومنه يتدفق تيار من ذرور أبيض إلى حوض دائري بالأسفل.

انتقلت الحركة المتذبذبة إلى تلك الآلة عن طريق أحد مجسات الآلة القابضة. وبيدين منبسطتين كانت الآلة القابضة تحفر الأرض وتطرح كتل الطين داخل الوعاء كمثريّ الشكل في الأعلى، وبذراع أخرى كانت بين الحين والحين تفتح بابًا وتزيل خَبَثًا صدِئًا مسودَّ اللون. كان مجس فولاذي آخر يصرِّف الذرور من الحوض عبر قناة مضلعة إلى مستقبِل كان محجوبًا عني بواسطة كومة الغبار الضارب إلى الزرقة. ومن ذلك المستقبِل

المستتر تصاعد خيط رفيع من الدخان الأخضر رأسيًّا في الهواء الساكن. وبينما أنظر مدت الآلة القابضة — محدثة صوت قعقعة موسيقية خافتة — مجسًّا لم يكن من قبل سوى بروز ثَلِم حتى اختفت نهايته خلف كومة الطين. وفي لحظة أخرى رفعت قضيبًا من الألومنيوم الأبيض — لم تصبه الأوساخ بعد ويلمع بشدة — ووضعته في كومة من القضبان كانت تتزايد باستمرار على جانب الحفرة. وما بين مغيب الشمس وظهور ضوء النجوم، كانت هذه الآلة فائقة البراعة قد صنعت أكثر من مائة من تلك القضبان من الطين الخام، وارتفعت كومة الغبار المزرق على نحو ثابت حتى علت جانب الحفرة.

التناقض بين الحركات الخاطفة والمعقدة لتلك الآلات والحركات الخرقاء اللاهثة الكسول للكائنات التي تتحكم فيها كان أمرًا لافتًا للانتباه، واضطررت على مدار عدة أيام بعدها أن أكرر على نفسي أن الكائنات — وليست الآلات — هي التي تنعم بالحياة.

كان الكاهن ينظر من الفتحة عندما جلب المريخيون أول إنسان إلى الحفرة. كنت أجلس في مكان أدنى رابضًا أرهف السمع. تحرك للخلف فجأة، وجثم على الأرض في نوبة فزع خشية أن يلاحظونا. جاء ينزلق على الأنقاض، وزحف بجواري في الظلام يشير بيده عاجزًا عن الكلام، وشاركته الفزع هنيهة. كانت إشارته دليلًا على تنازله عن الفتحة، وبعد قليل منحني الفضول الشجاعة، فوقفت، وخطوت بجانبه، ثم تسلقت الأنقاض وصولًا إلى الفتحة. في البداية لم أر داعيًا لتصرفه الجنوني. حل ضوء الشفق الآن وكانت النجوم صغيرة خافتة الضوء، لكن الحفرة كانت تسطع بالنيران الخضراء المتوهجة التي صاحبت تصنيع الألومنيوم. كان المشهد بأكمله صورة متوهجة من وميض أخضر وظلال سوداء صدئة متنقلة ومجهِدة للعين على نحو غريب. انتشرت الوطاويط في كل مكان. لم يعد بالإمكان رؤية المريخيين المتمددين بعد أن ارتفعت كومة الذرور الأخضر الضارب إلى الزرقة حتى حجبتهم، ووقفت إحدى آلات القتال بأقدام منكمشة منقبضة في زاوية الحفرة. بعدها ووسط الضجيج الصاخب الصادر من الآلة، سمعت ما يشبه أصواتًا بشرية، انتبهت لها أول الأمر لكن سرعان ما توقفت عن التفكير فيها.

جثمت في مكاني أرقب آلة القتال عن كثب، أقنع نفسي الآن للمرة الأولى أن القلنسوة تحتوي بالفعل كائنًا مريخيًّا. مع تصاعد اللهب الأخضر استطعت أن أرى الوميض الزيتي لبشرته وبريق عينيه. وفجأة سمعت صرخة، ورأيت مجسًّا طويلًا يصل خلف الآلة إلى القفص الصغير الذي انعقف فوق ظهرها. بعدها رُفع شيء — شيء يقاوم بكل ما أوتي من قوة — عاليًا في السماء؛ شيء غامض أسود في ضوء النجوم، وعندما

نزل ذلك الشيء الأسود مرة أخرى، رأيت وسط البريق الأخضر أنه إنسان. للحظة كانت هيئته واضحة للغاية؛ كان بدينًا متورد الوجه كهلًا حسن الهندام لا بد أنه قبل ثلاثة أيام كان يجوب العالم متمتعًا بمنزلة اجتماعية رفيعة. رأيت عينيه المحدقتين وومضات من الضوء على أزرار ثيابه وسلسلة الساعة. اختفى الرجل خلف الكومة، وساد الصمت هنيهة. بعدها صدر صوت صياح ونعاب جذِل متواصل من المريخيين.

نزلت متسللًا الأنقاض، ووقفت بصعوبة، ثم وضعت يدي في أذني، وأسرعت إلى حجرة غسل الآنية. رفع الكاهن — الذي كان يجلس جاثمًا في صمت وذراعاه فوق رأسه — بصره حال مروري بجواره، وصرخ بصوت عال لفراري منه، ثم أخذ يركض خلفي.

وازنَت تلك الليلة — ونحن نختبئ داخل حجرة غسل الآنية — بين شعورنا بالرعب وبين غواية اختلاس النظر هذه، مع أني شعرت بحاجة ملحة لفعل شيء ما، وحاولت عبثًا التفكير في خطة للهرب، لكن بعدها وفي اليوم الثاني، استطعت تحديد موقعنا بوضوح شديد. وجدت الكاهن عاجزًا كلية عن النقاش؛ فذلك الفعل الجديد الذي بلغ منتهى الوحشية سلبه بقايا عقله أو قدرته على النظر في عواقب الأمور. الواقع أنه دنا بالفعل إلى مستوى الحيوانات. لكني سيطرت على نفسي قدر المستطاع. ما إن واجهت الحقائق حتى تأكد لدي أنه بالرغم من الموقف العصيب الذي نحن فيه، فلا يوجد مبرر لليأس التام. فرصتنا الرئيسية تكمن في احتمالية ألا يجعل المريخيون من الحفرة سوى معسكر مؤقت، وحتى لو جعلوها موقعًا دائمًا، فربما يعتبرون أن حراستها ليست بالأمر الضروري. أيضًا فكرت مليًّا في احتمال أن نحفر طريقًا في اتجاه بعيد عن الحفرة، لكن احتمالات ظهورنا في نطاق رؤية إحدى آلات القتال القائمة بأعمال الحراسة بدت لي كبيرة في البداية. إضافة إلى ذلك كان سيتعين عليّ القيام بجميع أعمال الحفر بمفردي؛ فمؤكد أن الكاهن كان سيخذلني.

كنا في اليوم الثالث — إذا لم تخني الذاكرة — عندما شاهدت مقتل الفتى. كانت تلك هي المرة الوحيدة التي رأيت فيها المريخيون يَطعَمون. بعد تلك التجربة تجنبت النظر من فتحة الجدار جزءًا طويلًا من اليوم. دخلت حجرة غسل الآنية، وأزلت الباب، وقضيت بعض الساعات أحفر مستخدمًا بلطتي محاولًا قدر المستطاع ألا أصدر جلبة، لكن عندما حفرت فتحة بعمق نحو نصف متر انهارت الأرض المتداعية في صخب، ولم أجرؤ على استئناف الحفر. خارت عزيمتي، وتمددت على أرضية الحجرة وقتًا طويلًا دون أن أجرؤ حتى على الحركة. وبعدها تخليت تمامًا عن فكرة الهروب عن طريق الحفر.

كان التأثير الذي تركه المريخيون عليّ هائلًا حتى إني لم أعلق في البداية آملًا أن يكون خلاصنا عن طريق دحرهم على أيدي البشر. لكن في الليلة الرابعة أو الخامسة، سمعت صوتًا يشبه قصف المدافع.

كان ذلك في وقت متأخر جدًّا من الليل، وكان القمر متلألئًا من شدة الضياء. أزال المريخيون آلة الحفر، وباستثناء آلة قتال كانت تقف عند أبعد كومة من الحفرة وآلة قابضة محجوبة عني داخل أحد أركان الحفرة أسفل الفتحة التي كنت أختلس النظر منها مباشرة، لم يكن أحد منهم في المكان. وفيما عدا الوهج الخافت المنبعث من الآلة القابضة والقضبان ورُقع ضوء القمر الأبيض، كانت الحفرة مظلمة، وباستثناء قعقعة الآلة القابضة كان المكان هادئًا. كانت ليلة سكون جميل، وباستثناء كوكب واحد، بدا القمر وكأنه يستأثر بالسماء لنفسه. سمعت نباح كلب، وذلك الصوت المألوف هو ما جعلني أرهف السمع. بعدها سمعت بوضوح شديد صوت هدير يشبه تمامًا هدير المدافع. سمعت صوت ستة انفجارات، ثم تلتها ستة أخرى بعد فترة طويلة. وكان ذلك كل شيء.

الفصل الرابع

موت الكاهن

في اليوم السادس من حصارنا اختلست النظر للمرة الأخيرة من الفتحة، وعندها وجدت نفسي وحيدًا. بدلًا من بقاء الكاهن بالقرب مني ومحاولة إبعادي عن الفتحة، فإنه عاد إلى حجرة غسل الآنية. داهمتني فكرة مفاجئة. عدت بسرعة وهدوء إلى حجرة غسل الآنية، ووسط الظلام سمعت الكاهن يشرب. انتزعت منه ما كان يشربه في الظلام، ووجدت بين أصابعي زجاجة خمر.

تصارعنا بضع دقائق. سقطت الزجاجة على الأرض وانكسرت، وتوقفت أنا، ثم نهضت. وقفنا نلهث وكلانا يهدد الآخر. في النهاية وقفت حائلًا بينه وبين الطعام، وأخبرته عن نيتي لأن نضع نظامًا جديدًا. قسَّمت الطعام في حجرة المؤن إلى حصص تكفينا عشرة أيام. لم أكن لأسمح له بتناول المزيد من الطعام ذلك اليوم. بعد الظهيرة حاول دون جدوى أن يصل إلى الطعام. كان النعاس قد غلبني، لكني استيقظت في لحظة. طوال النهار وطوال الليل ونحن نجلس وجهًا لوجه؛ أنا منهك ولكن ثابت العزم، وهو يبكي ويتذمر من شعوره بالجوع. أعرف أنه لم يمر علينا ونحن هكذا سوى نهار وليل، لكنهما بدوا لي — حسبما يبدو لي الآن — أمدًا لا نهاية له.

وهكذا انتهى تنافرنا المتزايد باصطدام صريح. وعلى مدار يومين طويلين نشبت بيننا نزاعات خفيضة الصوت فيها شيء من التصارع. كانت ثمة أوقات أضربه فيها وأركله بجنون، وأوقات أداهنه وأقنعه، ومرة حاولت رشوته بآخر زجاجة خمر لدينا، إذ كانت هناك مضخة لمياه الأمطار يمكنني الحصول على الماء منها، لكن لا القوة أفادت ولا اللين أفاد؛ فقد تجاوز الرجل حدود العقل. لم يتوقف عن هجماته على الطعام ولا عن تمتمته الصاخبة بينه وبين نفسه. لم يراع الاحتياطات الأولية التي تجعل من محبسنا

مكانًا محتملًا للبقاء. شيئًا فشيئًا بدأت أدرك أنه فقد عقله تمامًا؛ بدأت أدرك أن رفيقي الوحيد في تلك الظلمة البغيضة رجل مجنون.

تحضرني الآن ذكريات ضبابية محددة تجعلني أميل إلى الاعتقاد بأن عقلي كان يشتُّ في بعض الأوقات. كانت تراودني أحلام غريبة بشعة كلما غفت عيناي. قد يبدو أن في الأمر تناقضًا، لكني أميل إلى الاعتقاد بأن ضعف الكاهن وذهاب عقله حذَّراني وثبَّتاني وحافظا على سلامة عقلي.

في اليوم الثامن بدأ يتحدث بصوت مرتفع بدلًا من الحديث همسًا، ولم أفلح بأي وسيلة في حمله على خفض صوته.

أخذ يردد مرارًا وتكرارًا: «إنه العدل، يا إلهي! إنه العدل. العقاب ينزل عليّ. لقد أذنبنا، وأخفقنا. كان هناك فقر وبلوى؛ الفقراء دُفنوا في التراب، وأنا التزمت الصمت. وعظتُ الحمقى ... يا إلهي، كم كنتُ أحمق! عندما كان يتعين علي أن أصمد وأن أدعوهم كي يتوبوا ... يتوبوا! ... ظالمو الفقراء والمحتاجين ...! معصرة غضب الله!»

بعدها يعود فجأة إلى موضوع الطعام الذي منعته منه فيناشد ويتوسل ويبكي وأخيرًا يهدد. بدأ يرفع صوته، ورجوته ألا يفعل. أحسَّ أن بوسعه التحكم في؛ فهددني بأنه سيصرخ ويحضر المريخيين إلى هنا. أفزعني ذلك بعض الوقت، لكن أي تنازل من جانبي كان سينتقص من فرصة هروبنا إلى حد لا يوصف. تحديته، مع أني كنت أشك أنه سينفذ تهديده. لكنه لم يفعل شيئًا في ذلك اليوم. كان يتحدث وصوته يرتفع شيئًا فشيئًا طوال الجزء الأكبر من اليومين الثامن والتاسع ... كان يطلق تهديدات وتوسلات ممزوجة بكثير من الهذيان، وعلى الدوام كان يتحدث بندم أخرق على زيفه في خدمته للرب، وهو ما جعلني أشفق عليه. غلبه النعاس برهة، ثم بدأ ثانية بقوة جديدة وبصوت عال حتَّم علي إيقافه.

ناشدته: «هلا التزمت الصمت!»

وقف على ركبتيه، إذ كان جالسًا في الظلام بجوار المرجل.

قال بنبرة من المؤكد أنها وصلت الحفرة: «أنا صامت منذ حين، والآن لا بد لي من الإدلاء بشهادتي. الويل لتلك المدينة الظالمة! الويل! الويل! الويل! الويل! الويل لسكان الأرض بسبب الأصوات الأخرى للبوق ...»

قلت: «اخرس!» ونهضت، وفي ظل فزعي من أن يسمعنا المريخيون أضفت: «أستحلفك بالله ...»

صاح الكاهن: «كلا، تكلَّم! حقَّت عليّ كلمة الرب!»

في ثلاث خطوات وصل إلى الباب المؤدي إلى المطبخ.

«لا بد لي من الإدلاء بشهادتي! أنا ذاهب! لقد تأخرت كثيرًا.»

مددت يدي، وشعرت بساطور اللحم معلقًا على الحائط. تبعته في غمضة عين. كنت ثائر الأعصاب من شدة الخوف. قبل أن يصل إلى منتصف المطبخ، باغتُّه. وبلمسة إنسانية أخيرة، أدرت النصل وضربته بمؤخرة الساطور. تمدد على وجهه على الأرض. تعثرت فيه ووقفت ألهث. كان جامدًا بلا حراك.

فجأة سمعت ضوضاء في الخارج — تفتت وتهشم الجبس المتداعي — وأظلمت فتحة الحائط المثلثة. رفعت بصري، ورأيت السطح السفلي من إحدى الآلات القابضة يقترب شيئًا فشيئًا من الفتحة. التوى أحد أطرافها القابضة وسط الحطام، وظهر طرف آخر يتحسس طريقه فوق العوارض المتداعية. وقفت مبهوتًا أحدق النظر. بعدها رأيت من خلال شيء أشبه بطبق زجاجي بالقرب من طرف الجسم وجهَ — مثلما قد نسميه — المريخي، وعيناه السوداوان الكبيرتان تختلسان النظر، ثم ظهر مجس معدني طويل يشبه الأفعى يتحرك ببطء عبر الفتحة.

استدرت بصعوبة، وتعثرت في جثة الكاهن، وتوقفت عند باب حجرة غسل الآنية. كان المجس بعيدًا بعض الشيء — على مسافة مترين أو أكثر — في الحجرة، يتلوى ويستدير بحركات مفاجئة غريبة في هذا الاتجاه وفي ذاك. في البداية وقفت مذهولًا من تلك الحركة البطيئة المتقطعة. وبعدها وبصرخة جشَّاء خافتة دفعت نفسي عبر حجرة غسل الآنية. ارتجف جسدي بعنف؛ حتى كدت لا أستطيع الوقوف منتصبًا. فتحت باب قبو الفحم، ووقفت هناك في الظلام أحدق في مدخل المطبخ خافت الإنارة وأنا أرهف السمع. هل رآني المريخي؟ ماذا هو فاعل الآن؟

كان شيء يتحرك هناك جيئة وذهابًا بهدوء بالغ، وبين الحين والحين كان يقرع الجدار أو يبدأ تحركه بصوت رنين مدو خافت كحركة المفاتيح في حلقة المفاتيح. ثم سُحب جسم ثقيل — عرفت ماهيته جيدًا — عبر أرضية المطبخ نحو الفتحة. لم أستطع المقاومة، فتسللت إلى الباب، واختلست النظر إلى المطبخ. وفي ضوء الشمس الساطع في الخارج رأيت المريخي — داخل آلته القابضة — ينعم النظر في رأس الكاهن. فكرت على الفور أنه سيستنتج وجودي من أثر الضربة التي سددتها للكاهن.

زحفت عائدًا إلى قبو الفحم، وأغلقت الباب، وبدأت أغطي نفسي قدر استطاعتي بهدوء وسط الظلام بين أخشاب الوقود والفحم هناك. بين الحين والآخر كنت أتوقف جامدًا في مكاني لأسمع ما إذا أدخل المريخي مجساته عبر الفتحة مجددًا.

عاد الرنين المعدني الخافت مرة أخرى. تعقبته ببطء وهو يتحرك داخل المطبخ. بعد قليل سمعته في مكان قريب؛ حجرة غسل الآنية حسبما ظننت. خيِّل إلي أن طوله ربما لا يكون كافيًا للوصول إلي. أطلت الدعاء. تحرك ذلك الشيء يخدش باب القبو بصوت خافت. تلا ذلك أمد من قلق لا يطاق، ثم سمعته يتحسس المزلاج! لقد وجد الباب! المريخيون يعرفون الأبواب!

أمسك بالمزلاج دقيقة، ثم فُتح الباب.

في الظلام استطعت بالكاد رؤية ذلك الشيء — شديد الشبه بخرطوم الفيل أكثر من أي شيء آخر — يتحرك في اتجاهي ويلمس ويفحص الجدران والفحم والخشب والسقف. كان شبيهًا بدودة سوداء تميل برأسها العمياء هنا وهناك.

في إحدى المرات لمس كعب حذائي. كنت على شفا الصراخ؛ فعضضت على يدي. ظل المجس صامتًا فترة. ظننت أنه قد تقهقر، لكن بعد فترة قصيرة وبطقطقة مفاجئة أمسك شيئًا — ظننته أنا! — وبدا أنه خرج من القبو ثانية. ظل الشك يعتريني هنيهة. من الواضح أنه أخذ كتلة من الفحم كي يفحصها.

انتهزت الفرصة، وغيرت مكاني قليلًا، ثم أنصتُّ. همست بدعاء من القلب طلبًا للأمان.

بعدها سمعت الصوت الموزون البطيء يتسلل نحوي مجددًا. اقترب مني شيئًا فشيئًا يخدش الجدران ويقرع قطع الأثاث.

وبينما لا يزال الشك يعتريني، قرع المجس باب القبو بخفة وأغلقه. سمعته يدخل حجرة المؤن، وسمعت قعقعة علب البسكويت وانكسار إحدى الزجاجات، وبعدها صوت ارتطام مدوٍّ عند باب القبو، تلاه صمت تحول إلى حال من الترقب لا نهاية له.

أتراه رحل؟

أخيرًا قررت أنه رحل.

لم يدخل حجرة غسل الآنية مرة أخرى، لكني رقدت طوال اليوم العاشر في الظلام مدفونًا بين الفحم وخشب الوقود لا أجرؤ حتى على الخروج من أجل الحصول على شراب كنت أتعطش للحصول عليه. وفي اليوم الحادي عشر جازفت بالخروج من مكمني.

الفصل الخامس

السكون

أول ما فعلته قبل العودة إلى حجرة المؤن أني أحكمت غلق الباب بين المطبخ وحجرة غسل الآنية. لكن حجرة المؤن كانت خالية؛ اختفى كل فتات الطعام. على ما يبدو أن المريخي أخذه كله في اليوم السابق. عندما اكتشفت ذلك اعتراني اليأس للمرة الأولى. لم أتناول طعامًا أو شرابًا في اليومين الحادي عشر والثاني عشر.

في البداية جفَّ فمي وحلقي، وضعُفت قواي على نحو ملحوظ. جلست في ظلمة حجرة غسل الآنية تنتابني مشاعر البؤس المشوب بالجزع. انصب تفكيري على الطعام. خيِّل إلي أني أُصبت بالصمم، لأني توقفت تمامًا عن سماع أصوات الحركة التي اعتدت سماعها من الحفرة. لم أشعر بالقوة الكافية للتسلل في هدوء إلى الفتحة، وإلا لكنت فعلت.

في اليوم الثاني عشر كان حلقي يؤلمني للغاية حتى إني انقضضت — مخاطرًا بلفت أنظار المريخيين لي — على مضخة مياه الأمطار التي تصدر صوت صرير بجوار الحوض، وحصلت على كوبين ممتلئين من مياه الأمطار المشوبة بالأوساخ والسواد. أنعشتني تلك المياه كثيرًا، وتشجعت عندما أدركت أنه ما من مجسات فضولية تتبعت الصوت الصادر عن المضخة.

أثناء تلك الأيام — وعلى نحو متقلب غير متسق — فكرت كثيرًا في الكاهن وفي طريقة موته.

في اليوم الثالث عشر شربت المزيد من المياه، وغفوت، وانتابتني أفكار غير مترابطة عن الطعام وخطط الهروب المستحيلة الغامضة. كلما غفوت راودتني كوابيس مرعبة عن موت الكاهن أو وجبات عشاء مترفة، لكني كنت في صحوي وفي نومي أشعر بألم

شديد يدفعني لتناول المزيد والمزيد من المياه. لم يعد الضوء المتسلل إلى حجرة غسل الآنية رماديًّا، وإنما بدا أحمر اللون. بدا لونه في خيالي المضطرب كلون الدماء.

في اليوم الرابع عشر دخلت المطبخ، وفوجئت عندما وجدت أوراق العشب الأحمر قد نمت أمام الفتحة في الجدار لتحول ضوء المكان إلى ضباب قرمزي اللون.

في وقت مبكر من اليوم الخامس عشر سمعت سلسلة أصوات غريبة مألوفة في المطبخ، وعندما أنصت ميزت كلبًا يتشمم المكان ويخدش بأظافره. عندما دخلت المطبخ رأيت أنف كلب يطل برأسه من فتحة بين الأوراق داكنة الحمرة. أدهشني هذا الأمر أيما دهشة. عندما اشتم الكلب رائحتي، نبح نباحًا قصيرًا.

فكرت في أني لو تمكنت من حثه على دخول المكان بهدوء لربما تمكنت من قتله وأكله، وعلى أي حال سيكون من الأفضل قتله خشية أن تلفت أفعاله اهتمام المريخيين.

تسللت للأمام قائلًا بصوت خافت: «أيها الكلب المطيع!» لكنه سحب رأسه فجأة، واختفى.

أرهفت السمع، فلم يكن بي صمم، بل كانت الحفرة ساكنة. سمعت صوتًا يشبه صفق أجنحة الطيور وصوت نعيب أجش، ولم أسمع شيئًا آخر.

ظللت راقدًا بجوار الحفرة وقتًا طويلًا دون أن أجرؤ على التحرك بجوار النباتات الحمراء التي حجبت الحفرة عن عيني. مرة أو مرتين سمعت صوت خطوات تشبه قدم كلب يسير جيئة وذهابًا فوق الرمال على مسافة بعيدة في مستوى أدنى من المكان الذي كنت فيه، ومزيدًا من الأصوات الشبيهة بأصوات الطيور، لكن لم أسمع شيئًا آخر. وأخيرًا شجعني السكون، وألقيت نظرة.

باستثناء الزاوية — حيث تجمَّع عدد كبير من الغربان وتصارعوا على الهياكل العظمية للجثث التي استنزفها المريخيون — لم يكن ثمة كائن حي داخل الحفرة.

حدقت النظر حولي دون أن أصدق عيني. اختفت كل الآلات. وباستثناء الكومة الكبيرة للذرور الأزرق الرمادي في إحدى الزوايا، وعدد من قضبان الألومنيوم في زاوية أخرى، والطيور السوداء، وهياكل القتلى، كان المكان مجرد حفرة دائرية فارغة وسط الرمال.

دفعت نفسي على مهل خارج العشب الأحمر، ووقفت على كومة الأنقاض. استطعت رؤية كل الاتجاهات عدا الاتجاه الذي كان خلفي نحو الشمال، ولم أر المريخيين ولا أي أثر لهم. انهارت الغرفة تحت قدمي تمامًا، لكن النفايات وفرت منحدرًا يمكن الوصول من خلاله إلى قمة الأنقاض. ها قد حانت فرصة هروبي. حينها بدأت أرتجف.

ترددت بعض الوقت، وبعدها في نوبة حزم يائس وبقلب يخفق بعنف، تسلقت الأنقاض وصولًا إلى قمة الكومة التي كنت مدفونًا فيها منذ وقت طويل.

نظرت حولي مجددًا. لم أر أيًّا من المريخيين جهة الشمال أيضًا.

عندما رأيت هذا الجزء من «شين» آخر مرة في ضوء النهار، كان شارعًا مليئًا بمنازل بيضاء وحمراء مترفة، تنتشر في أماكن متفرقة منه العديد من الأشجار الظليلة. الآن أقف على تل من المباني المنهارة والطين والحصى، ينتشر فوقه نبات أحمر شبيه بالصبار يصل ارتفاعه حتى الركبة لا ينازعه نبات أرضي وحيد. كانت الأشجار بالقرب مني بنية ميتة، وعلى مسافة أبعد كانت شبكة من الخيوط الحمراء تغطي الجذوع التي لا تزال حية.

صارت كل المنازل المجاورة خرابًا، لكن أيًّا منها لم يحترق. كانت الجدران قائمة — حتى الطابق الثاني في بعض الأحيان — تتخللها نوافذ محطمة وأبواب مكسورة. نما العشب الأحمر بغزارة داخل الغرف غير المسقوفة. وفي مستوى أدنى مني كانت تقع الحفرة الكبيرة حيث تتعارك الغربان على ما فيها من فضلات. انقض عدد من الطيور الأخرى وسط الأنقاض. وعلى مسافة أبعد رأيت قطًّا نحيلًا ينسل خلسة جاثمًا فوق أحد الجدران، لكن لم يكن ثمة أثر للبشر.

بدا النهار — على عكس الأيام التي قضيتها في محبسي الأخير — وضّاءً مشرقًا، والسماء زرقاء وهاجة. تحرك العشب الأحمر الذي يغطي كل قطعة من الأرض غير المأهولة بالسكان حركة خفيفة بفعل الرياح الهادئة. وأخيرًا عدت أستمتع بالهواء العليل!

الفصل السادس

حصيلة خمسة عشر يومًا

أخذت أسير مترنحًا بعض الوقت فوق تلك الرابية دون أن أحسب حسابًا لسلامتي. في نطاق هذا الوكر كريه الرائحة الذي خرجت منه فكرت بقليل من الجدية في سلامتنا الحالية. لم أكن أدرك ما حدث للعالم، ولم أتوقع ذلك المشهد المروع لتلك الأشياء الغريبة. توقعت رؤية «شين» أطلالًا؛ وجدت حولي مشهدًا — غريبًا مفزعًا — لكوكب آخر.

في تلك اللحظة اعتراني شعور يتجاوز نطاق مشاعر البشر، لكنه شعور تعرفه جيدًا الحيوانات البائسة التي نفرض هيمنتنا عليها. شعرت بما قد يشعر به أرنب عائد إلى جحره، وفجأة يرى نتيجة ما قام به عدد كبير من عمال البناء المنشغلين الذين يحفرون أساس أحد المنازل. شعرت ببوادر شيء ازداد وضوحًا في ذهني بعدها بقليل؛ شيء أغمَّني أيامًا عديدة، شعور بالنزول عن العرش، اقتناع أني لم أعد السيِّد، بل مجرد حيوان من الحيوانات تحت أقدام المريخيين. حالنا مشابه لحال تلك الحيوانات؛ ما بين التسلل والمراقبة والجري والاختباء. انتهى الخوف من البشر وإمبراطوريتهم.

لكن ما لبث هذا الشعور الغريب أن اختفى سريعًا كما انتابني، وأصبح الجوع دافعي بعد أيام طويلة كئيبة من الامتناع عن الطعام. في الاتجاه البعيد عن الحفرة رأيت — خلف سور مكسو باللون الأحمر — رقعة من حديقة غير مدفونة. أمدني هذا بفكرة، فسرت وسط العشب الأحمر الذي كان يصل إلى ركبتي في بعض الأحيان وإلى عنقي في أحيان أخرى. كثافة العشب أمدتني بشعور مطمْئن بأني محجوب عن الأنظار. كان ارتفاع السور نحو مترين، وعندما حاولت تسلقه اكتشفت أني لا أستطيع رفع قدمي على قمة السور، لذلك تابعت سيري بمحاذاته ووصلت إلى ركن وكومة من الصخور مكنتني من اعتلاء قمته، وألقيت بنفسي داخل الحديقة التي كنت أنشد الوصول إليها. هناك وجدت بعض البصل الصغير، وبصلتين من نبات سيف الغراب، وكمية من

الجزر غير الناضج أخذتها جميعًا ثم تسلقت بصعوبة سورًا منهارًا مواصلًا سيري بين الأشجار القرمزية متجهًا إلى «كيو»، كان الأمر أشبه بالسير وسط ممر من قطرات الدماء العملاقة، وأنا تسيطر علي فكرتان: الحصول على مزيد من الطعام، والابتعاد — بسرعة وبعيدًا قدر ما تسمح لي قوتي — عن تلك المنطقة الملعونة الخارقة للطبيعة التي توجد بها الحفرة.

على مسافة أبعد وفي بقعة معشوشبة وجدت مجموعة من فطر عيش الغراب التهمتها هي الأخرى، ثم وجدت جدولًا بنيًّا من مياه ضحلة جارية في مكان كان مرعًى فيما سبق. لم تفعل تلك القطع الصغيرة من الطعام شيئًا سوى أنها فتحت شهيتي للطعام. دُهشت أول الأمر لرؤية ذلك السيل في صيف جاف حار كهذا، لكني اكتشفت بعدها أن سببه هو النمو الوفير للعشب الأحمر. ما إن تلتقي تلك النبتة الغريبة بالمياه، حتى تستحيل على الفور عملاقة وخصيبة على نحو استثنائي. كانت بذوره تلقى في نهري «واي» و«التيمز»، وسرعان ما سدَّت الأوراق العملاقة سريعة النمو مجرى المياه في النهرين.

في «بيوتني» — مثلما رأيت فيما بعد — كاد الجسر يُفقد وسط كتلة متشابكة من هذا العشب، وفي «ريتشموند» أيضًا تدفقت مياه نهر «التيمز» في جداول واسعة ضحلة عبر مروج «هامتون» و«تويكينام». وأينما انتشرت المياه، تبعها العشب حتى اختفت منازل وادي «التيمز» المنهارة لفترة في ذلك المستنقع الأحمر الذي استكشفت حدوده، واختفى معظم الخراب الذي أحدثه المريخيون.

في النهاية مات العشب الأحمر بنفس السرعة التي انتشر بها تقريبًا. يُعتقد أن داءً يُعزى إلى نوع من البكتيريا قد أصابه بعد فترة قصيرة. بفضل الانتخاب الطبيعي، تتمتع كل النباتات الأرضية بمناعة ضد الأمراض البكتيرية، فهي لا تموت أبدًا دون صراع مرير، لكن العشب الأحمر تعفن وكأنه شيء ميت بالفعل. ابيضَّت الأوراق، ثم تغضنت وجفت. كانت الأوراق تتكسر من أضعف لمسة، والمياه التي كانت تحفز نموها من قبل أصبحت الآن تحمل بقاياها إلى البحر.

بالطبع أول ما فعلته عندما وصلت إلى هذه المياه أني رويت ظمئي. شربت قدرًا كبيرًا من المياه، ودفعني دافع أن آكل بعض أوراق العشب الأحمر، لكنها كانت مخضلَّة ذات مذاق لاذع يبعث على الشعور بالغثيان. وجدت المياه ضحلة بما يكفي لأن أخوض فيها بأمان، مع أن العشب الأحمر أعاق حركتي قليلًا، لكن الجدول أخذ يزداد عمقًا

في اتجاه النهر، واستدرت عائدًا إلى «مورتليك». تمكنت من تمييز الطريق عن طريق الأطلال المتفرقة لمنازله وأسواره ومصابيحه، وهكذا خرجت سريعًا من ذلك الفيضان، وشققت طريقي إلى التل الواصل باتجاه «روهامتون» ووصلت مرعى «بيوتني».

هنا تغير المشهد من الغريب وغير المألوف إلى حطام مألوف؛ كشفت بقع من الأرض عن دمار إعصار، وعلى مسافة ليست ببعيدة رأيت أماكن لم يتغير فيها شيء على الإطلاق، فستائر المنازل مسحوبة على نحو حسن الترتيب، والأبواب مغلقة، كأن أصحابها تركوها مدة يوم واحد، أو كأن قاطنيها ينامون في الداخل. كان العشب الأحمر أقل كثافة، والأشجار الطويلة على طول الطريق خالية من العشب الأحمر. بحثت عن الطعام بين الأشجار، لكن دون جدوى، واقتحمت منزلين يخيم عليهما السكون، لكنهما كانا قد تعرضا للاقتحام والنهب من قبل. استرحت ما تبقى من النهار في مكان تحفه الأشجار بعد أن استعصت عليّ مواصلة السير من شدة ما كنت ألاقيه من وهن.

كل هذا الوقت لم أر بشرًا، ولا أثرًا للمريخيين. التقيت كلبين يبدو عليهما الجوع، لكن كليهما أسرعا في طريق ملتوٍ بعيدًا عن الاتجاه الذي كنت أسلكه. وبالقرب من «روهامتون» رأيت هيكلين عظميين بشريين؛ ليسا جثتين بل هيكلين عظميين منزوع عنهما اللحم تمامًا، وفي الغابة القريبة مني وجدت عظامًا مسحوقة مبعثرة لقطط وأرانب وجمجمة لأحد الخراف. لُكْت أجزاء منها في فمي، لكني لم أحصل منها على شيء.

بعد غروب الشمس واصلت السير على وهن في الطريق المؤدي إلى «بيوتني» حيث تراءى لي أن الشعاع الحراري حتمًا أُعمل هاهنا. وفي الحديقة التي كانت تبعد عن «روهامتون» حصلت على كمية من ثمار البطاطا غير الناضجة تكفي لسد رمقي. ومن هذ الحديقة ألقيت نظرة على «بيوتني» والنهر. بلغ قفر المكان في ضوء الغسق كل مبلغ حيث الأشجار السوداء والأطلال المهجورة التي يغطيها السواد، ونحو سفح التل رأيت زَخَّات من مياه النهر الفائضة المصطبغة بالصبغة الحمراء للعشب الأحمر. وفيما عدا ذلك، كان السكون المطبق. التفكير في كيفية حصول ذلك التغير الموحش على هذا النحو من السرعة بثَّ في نفسي رعبًا يعجز اللسان عن وصفه.

ظللت حينًا أظن أن البشر قد أُبيدوا من الوجود، وأني واقف هناك وحدي؛ أني آخر من تُرك حيًّا. وعلى مقربة من قمة تل «بيوتني» وجدت هيكلًا عظميًّا آخر ذراعاه مخلوعتان من مكانيهما وملقاتان على بعد عدة أمتار من الهيكل. كلما واصلت السير، زادت قناعتي أن إبادة الجنس البشري — باستثناء الهائمين على وجوههم مثلي — وقع

في ذلك الجزء من العالم. واصل المريخيون — حسبما تراءى لي — طريقهم تاركين البلدة مهجورة بحثًا عن الغذاء في مكان آخر. ولعلهم في تلك اللحظة يلحقون الدمار بمدينة برلين أو باريس، أو لعلهم اتجهوا ناحية الشمال.

الفصل السابع

الرجُل الذي قابلته على تل «بيوتني»

قضيت تلك الليلة في نزل يوجد على قمة تل «بيوتني»، أنام على فراش للمرة الأولى منذ فراري من «ليذرهيد». لن أتحدث عن المتاعب غير الضرورية التي واجهتها في دخول النزل عنوة — مع أني لاحقًا وجدت الباب الأمامي غير موصد — ولا عن كيفية تفتيش كل الغرف بحثًا عن الطعام، حتى إذا كنت على شفا اليأس، وجدت — فيما بدت لي غرفة خادم — كسرة خبز لم تسلَم من قرض الجرذان وعلبتي أناناس محفوظ. كان أحدهم قد سبقني إلى تفتيش المكان وسلبه ما فيه. بعدها وجدت في الحانة بعض البسكويت والشطائر لم يلتفت إليها من سبقني في تفتيش المكان. لم أستطع تناول الشطائر لأنها كانت عفنة، أما البسكويت فلم يسد رمقي فحسب، بل ملأت به جيوبي أيضًا. لم أشعل أي ضوء خوفًا من قدوم المريخيين إلى ذلك الجزء من لندن بحثًا عن الغذاء في الليل. قبل أن أخلد إلى الفراش، مررت بفترة من التململ أطوف المكان خلسة من نافذة إلى أخرى أختلس النظر بحثًا عن أي أثر لتلك الوحوش. لم أنم إلا قليلًا، وبينما كنت أتمدد في فراشي وجدت نفسي أفكر دونما انقطاع، وهو شيء أذكر أني لم أفعله منذ جدالي الأخير مع الكاهن. وخلال كل الفترات التي تخللت هاتين النقطتين كانت حالتي الذهنية سلسلة متسارعة من حالات شعورية مبهمة أو شيئًا من الاستعداد الأحمق للتلقي. لكن أثناء الليل بدأ عقلي — الذي قوِي بفعل ما تناولت من الطعام على حد اعتقادي — يزداد صفاءً، وفكَّرت.

تصارعت ثلاثة أمور في الاستحواذ على عقلي؛ مقتل الكاهن، ومكان المريخيين، والمصير المحتمل لزوجتي. الحدث الأول لم يجلب لي أي شعور بالخوف أو تأنيب الضمير؛ نظرت إليه على أنه مجرد حادث قد وقع؛ حدث تمقته الذاكرة كثيرًا لكن من دون أي شعور بالذنب. أنظر لنفسي حينها مثلما أنظر لنفسي الآن مدفوعًا خطوة

خطوة نحو تلك الضربة المتهورة التي كانت نتاجًا محتمًا لسلسلة من الأحداث. لم أشعر بالاستهجان، لكن الذكرى الساكنة غير المتحركة استبدت بي. في سكون الليل — ومع ذلك الإحساس بقرب الرب الذي يصاحب السكون والعتمة في بعض الأحيان — عَقدت محاكمتي من أجل لحظة الحنق والخوف هذه. تتبعت كل خطوة في حديثنا بدءًا من اللحظة التي وجدته فيها جاثمًا بجواري غير عابئ بظمئي وهو يشير إلى ألسنة النيران والدخان التي تتصاعد من أنقاض «وايبريدج». كنا عاجزين عن التعاون؛ وهو ما لم تنتبه إليه المصادفة المشئومة. لو أني توقعت ما سيحدث، لافترقت عنه في «هاليفورد»، لكني لم أتوقع شيئًا، والجريمة هي أن تتوقع وتفعل. أسجل هذه الواقعة مثلما سجلت كل أحداث القصة. لم يكن هناك أي شهود، ولذا كان بإمكاني إخفاؤها، لكني كتبت عنها، وعلى القارئ أن يكوِّن رأيه حسبما يشاء.

بعد أن بذلت جهدًا في أن أزيح جانبًا صورة جثة الكاهن المنبطحة أرضًا، واجهت مشكلة المريخيين ومصير زوجتي. لم يكن لدي أي أخبار بشأن المريخيين، وفكرت في مائة احتمال، ولسوء الحظ فعلت الأمر نفسه مع مصير زوجتي. وفجأة أصبحت تلك الليلة مفزعة. وجدت نفسي جالسًا في الفراش أحدق في الظلام. وجدت نفسي أصلِّي من أجل أن يكون الشعاع الحراري قد اصطدم بها فجأة وأودى بحياتها دون أن يصيبها بالألم. لم أُصلِّ منذ الليلة التي عدت فيها من «ليذرهيد». كنت قد اعتدت قبلًا أن أتلو الصلاة من دون تدبر، وأن أصلي مثلما يغمغم الوثنيون بالتعويذات عندما يغمرني الكرب الشديد، أما الآن فقد صلَّيت خاشعًا، وتضرَّعت بثبات وتعقل وجهًا لوجه مع الرب في هذا الظلام. يا لها من ليلة غريبة! وأغرب ما فيها أنه ما إن طلع الفجر حتى تسللت — أنا الذي كنت أتحدث مع الرب — خارج النزل مثل فأر يغادر مخبأه، مثل كائن بالكاد أكبر من الفأر، حيوان دونيّ، شيء قد يُصاد ويُقتل بسبب نزوة عابرة من أسيادنا. ربما هم أيضًا كانوا يصلون للرب في طمأنينة. مؤكد أننا إذا لم نكن قد تعلمنا أي شيء، فعلى الأقل علَّمتنا هذه الحرب الشفقة؛ الشفقة على تلك الأرواح معدومة العقل التي تعاني هيمنتنا.

كان الصبح صحوًا صافيًا، وتوهجت السماء في الجانب الشرقي باللون القرنفلي، وكانت متقدة بسحب ذهبية صغيرة. وفي الطريق الذي يمتد ما بين قمة تل «بيوتني» و«ويمبلدون» رأيت عددًا من الآثار البائسة التي تؤكد تدفق تيار النازحين الفزعين في اتجاه لندن ليلة الأحد بعد القتال. كانت هناك عربة ثنائية العجلات محفور عليها اسم

«توماس لوب، بائع خُضر، مدينة نيو مالدن» إحدى عجلاتها مكسورة وبها صندوق قصديري مهجور، وقبعة من القش مغروسة في الطين الذي تيبس الآن، وأعلى تل «وست هيل» رأيت الكثير من الزجاج الملطخ بالدماء حول حوض المياه المقلوب. كنت أتحرك بخطى متثاقلة، وكانت خُططي أبعد ما تكون عن الوضوح. فكرت في الذهاب إلى «ليذرهيد» مع أني كنت أعرف أن فرصتي في العثور على زوجتي تكاد تكون معدومة. مؤكد أنها وأبناء عمي قد فروا من المكان ما لم يكن الموت قد باغتهم فجأة، لكن بدا لي أني ربما أجد أو أعرف المكان الذي فر إليه سكان «سَري». كنت أعلم أني أود العثور على زوجتي، وأن قلبي يعتصر ألَمًا عليها وعلى عالم البشر، لكن لم تكن لدي فكرة واضحة عن المكان الذي يمكنني العثور عليها فيه. حينها أيضًا كنت منتبهًا تمام الانتباه للوحدة التامة التي كنت أعانيها. ومن مفترق الطريق ذهبت — متخذًا من الأشجار والشجيرات الكثيفة غطاءً — إلى أطراف أراضي ويمبلدون الممتدة في كل مكان.

أضيئت رقع من المدى المظلم بنباتات الجولق الصفراء دون أي أثر للعشب الأحمر. وبينما أجوب المكان مترددًا على حدود الأرض الخلاء، أشرقت الشمس لتغمر جميع الأرجاء بالضوء والحيوية. التقيت مجموعة من الضفادع الصغيرة النشطة في مستنقع بين الأشجار. توقفت لأنظر إليها، وآخذ عبرة من إصرارها الشديد على الحياة. ولما استدرت فجأة بعدها بقليل وسط شعور غريب بأني مراقَب، رأيت شيئًا يربض وسط مجموعة من الأشجار. وقفت أشاهد ذلك الشيء. تقدمتُ للأمام خطوة، فوقف، ووجدته رجلًا مسلحًا بسيف قصير مقوس. اقتربت منه ببطء، بينما وقف هو ساكنًا بلا حراك ينظر إلي.

عندما اقتربت منه أكثر، وجدته يرتدي ملابس مغبَّرة ومتسخة كملابسي، الواقع أنه بدا وكأن أحدًا جرَّه عبر بالوعة. وعندما اقتربت أكثر، رأيت وحل المصارف الأخضر يمتزج باللون البني الباهت للطين الجاف والبقع الفحمية اللامعة. انسدل شعره الأسود فوق عينيه، وكان وجهه أسود متسخًا غائرًا حتى إنني لم أتعرف عليه أول الأمر. كان ثمة جرح أحمر في الجزء السفلي من وجهه.

صاح الرجل عندما أصبحت على مسافة عشرة أمتار منه: «مكانك!» فتوقفت. قال بصوت أجش: «من أين أتيت؟»

فكرت في سؤاله وأنا أتفحصه.

قلت: «أتيت من «مورتليك». كنت مدفونًا بالقرب من حفرة المريخيين التي أحدثتها أسطوانتهم. وقد استطعت الفرار.»

قال: «ما من طعام هنا. تلك بلدتي؛ كان هذا التل متجهًا للأسفل نحو النهر وللخلف نحو «كلابهام» وحتى حدود الأرض الخلاء. أي طريق ستسلك؟»

أجبته متأنيًا: «لا أدري. كنت مدفونًا تحت أنقاض أحد المنازل مدة ثلاثة عشر أو أربعة عشر يومًا. لا أعرف ماذا حدث.»

نظر إليّ في ارتياب، وظل يحدق في، ثم تغيرت تعبيرات وجهه.

أضفت: «لا رغبة لدي في التوقف هنا. عليّ الذهاب إلى «ليذرهيد» لأن زوجتي كانت هناك.»

مدَّ إصبعه مشيرًا إليّ.

قال: «إنه أنت! ذلك الرجل من «ووكينج». ولم تلق حتفك في «وايبريدج».»

تعرفت عليه في اللحظة نفسها.

– «وأنت المدفعي الذي جاء إلى حديقتي.»

قال: «يا لحسن الحظ! كلانا محظوظ! يا للعجب!» مدَّ يده نحوي، فصافحتها. وأردف: «تحركت زحفًا داخل أحد المصارف، لكنهم لم يقتلوا الجميع. وبعد أن رحلوا، توجهت نحو «والتون» عبر الحقول. لكن ... هذه ليست ستة عشر يومًا تمامًا، والشيب تسلل إلى شعرك.» أدار رأسه فجأة، ثم قال: «إنه غراب. أصبحت أعرف أن للطيور ظلالًا تلك الأيام. المكان هنا مكشوف نوعًا ما. دعنا نسير أسفل تلك الشجيرات، ونستكمل حديثنا.»

سألته: «هل رأيت أحدًا من المريخيين؟ منذ أن خرجت من ...»

قال: «لقد رحلوا باتجاه لندن. أظن أن لديهم معسكرًا أكبر هناك. أثناء الليل في كل مكان هناك — في طريق «هامستيد» — تتوهج السماء بأضوائهم. بدا المكان وكأنه مدينة كبيرة، ووسط هذا الوهج يمكنك أن تراهم وهم يتحركون. أما في النهار فلا يسعك هذا. لكن بالقرب منهم ... لم أرهم ...» (أخذ يعدُّ على أصابعه) «... طيلة خمسة أيام. بعدها رأيت اثنين منهم في طريق «هامرسميث» يحملان شيئًا ضخمًا. والليلة قبل الأخيرة ...» توقف وتحدَّث متأثرًا «... اقتصر الأمر على الأضواء، لكن هذا الشيء كان في الهواء. يخيَّل إلي أنهم بنوا آلة طائرة، وأنهم يتعلمون الطيران.»

وقفت على يديّ وركبتيّ لأننا كنا قد وصلنا إلى الشجيرات.

– «طيران!»

قال: «أجل، الطيران.»

واصلت التحرك حتى وصلت إلى مكان صغير تظله الأشجار، وجلست.

قلت: «انتهى أمر البشرية جمعاء. لو تمكنوا من فعل ذلك، لجابوا العالم في يُسر.»

أومأ برأسه موافقًا.

– «سيفعلون. لكن ... سيخفف ذلك وطأة الأمور هنا قليلًا. وإلى جانب ذلك ...»

نظر إلي، وأضاف: «ألست على يقين أنها نهاية البشر؟ أنا متيقن من ذلك. لقد هُزمنا، وقُضي علينا.»

حدقت النظر. قد يبدو الأمر غريبًا، لكني لم أفكر في تلك الحقيقة من قبل؛ حقيقة باتت واضحة وضوح الشمس فور أن تحدث بها. كنت لا أزال محتفظًا ببصيص من الأمل. تلك عادتي في التفكير دائمًا. ظل يكرر كلامه: «قُضي علينا.» وكان كلامه يحمل يقينًا قاطعًا.

قال: «قُضي الأمر. لقد فقدوا واحدًا ... واحدًا فحسب. لقد أحكموا سيطرتهم، وشلُّوا حركة أكبر قوة في العالم. حققوا فوزًا سهلًا علينا. لم يكن موت أحدهم في «وايبريدج» سوى حادث. وهؤلاء هم الطلائع فحسب. إنهم يواصلون القدوم إلى هنا. تلك النجوم الخضراء ... لم أر أيًّا منها مدة خمسة أو ستة أيام، لكني على يقين أنها تسقط في مكان ما كل ليلة. ما لنا حيلة في الأمر. لقد هُزمنا! لقد قُضي علينا!»

لم أُحر جوابًا، واكتفيت بالتحديق أمامي محاولًا التفكير عبثًا في شيء يوازن كلامه.

قال المدفعي: «تلك ليست حربًا. لم تكن حربًا قط؛ ليست أكثر من حرب بين البشر والنمل.»

فجأة تذكرت الليلة التي قضيتها في المرصد.

– «بعد الطلقة العاشرة، لم يطلقوا شيئًا ... على الأقل حتى سقوط الأسطوانة الأولى.»

قال المدفعي: «كيف عرفت؟» أوضحتُ ما لدي من معلومات، وأخذ يفكر فيها. قال: «عطل ما أصاب مدافعهم. لكن ماذا لو حدث ذلك؟ سوف يصلحونها على الفور. وحتى لو تأخروا، فكيف يمكن لهذا أن يغير النهاية؟ ليست سوى حرب بين البشر والنمل. جموع النمل تبني مُدنها، وتحيا حياتها، وتخوض حروبها وثوراتها، إلى أن يود البشر إزاحتهم من الطريق، فيُزاحون من الطريق. هذا حالنا الآن ... لسنا سوى جموع من النمل. فقط ...»

قلت: «ماذا؟»

– «نحن نمل يؤكَل.»

جلسنا كلانا ينظر إلى الآخر.

قلت: «وماذا سيفعلون بنا؟»

أجاب: «ذلك ما كنت أفكر فيه؛ ذلك ما كنت أفكر فيه. بعد أن تركت «وايبريدج»، اتجهت جنوبًا وأنا أفكر. أدركت ما يحدث. كان معظم الناس منهمكين في الصراخ ونشر الهياج فيما بينهم. لكنني لا أحب الصراخ. لقد واجهت الموت بضع مرات؛ لست جنديًّا زائفًا، وفي أحسن الأحوال وأسوئها الموت مجرد موت. ومن يواصل التفكير هو الذي يحظى بالنجاة. رأيت الجميع يسلكون الطريق بعيدًا عن الجنوب، وقلت في نفسي: «لن يكفي الطعام في هذا الاتجاه.» ثم استدرت في الاتجاه الآخر. ذهبت إلى المريخيين مثلما يذهب عصفور إلى واحد من بني البشر. في كل مكان ...» لوَّح بيده في الأفق «... كانوا حشودًا يتضورون جوعًا وهم يفرّون، ويطأ بعضهم بعضًا بأقدامهم ...»

رأى وجهي، فتوقف مرتبكًا.

قال: «لا شك أن كثيرين ممن كانوا يمتلكون نقودًا قد فروا إلى فرنسا.» بدا عليه التردد بشأن الاعتذار لي، ووقعت عيناه على عيني، فاستطرد: «الطعام هنا في كل مكان. معلبات في المتاجر؛ خمور، ومشروبات كحولية، ومياه معدنية، قنوات المياه ومصارفها خالية. حسنًا ... كنت أخبرك عما أفكر فيه. قد قلت لنفسي: «تلك كائنات عاقلة، ويبدو أنهم يريدوننا غذاءً لهم. في البداية سيسحقوننا؛ سيسحقون السفن والماكينات والمدافع والمدن وكل ما لدينا من نظام وترتيب. كل ذلك سيختفي. لو أن أحجامنا كأحجام النمل، لربما خرجنا من بينهم سالمين، لكننا لسنا كذلك. الوضع مستعص على السيطرة. تلك أولى الحقائق المؤكدة.» أليس كذلك؟»

صدَّقت على كلامه.

– «هذا هو الحال، وقد أنعمت التفكير فيه. الأمر الثاني أنهم الآن ينالون منا وقتما يريدون. على المريخي أن يقطع بضعة أميال فحسب ليصل إلى حشد من الفارّين. رأيت واحدًا منهم ذات يوم بالقرب من «واندسورث» يدك المنازل دكًّا وينقِّب وسط الأنقاض. لكنهم لن يستمروا على ذلك. حالما ينتهون من تدمير السفن والمدافع والسكك الحديدية وينتهون من كل ما يفعلونه هناك، سيبدءون في الإمساك بنا على نحو منظم؛ يختارون الأفضل من بيننا ويودِعونهم داخل أقفاص وأشياء شبيهة. هذا ما سيبدءون فعله عما قريب جدًّا. يا إلهي! إنهم لم يبدءوا حربهم ضدنا بعد. ألا ترى ذلك؟»

قلت متعجبًا: «لم يبدءوا!»

– «لم يبدءوا. كل ما حدث حتى الآن إنما حدث بسبب عدم التزامنا الهدوء ... نحن نزعجهم بالمدافع وبمثل تلك الحماقات. نفقد هدوءنا، ونتدافع حشودًا إلى أماكن ليست أكثر أمانًا عن الأماكن التي نفر منها. أما هم، فليست لديهم الرغبة في التضييق علينا بعد. هم يصنعون معداتهم؛ يصنعون كل المعدات التي لم يستطيعوا إحضارها معهم، ويهيئون المكان لباقي شعبهم. وهذا على الأرجح سبب توقف أسطواناتهم وقتًا خشية إلحاق الأذى بمن جاءوا منهم من قبل. بدلًا من أن نهرول على غير هدى مكتفين بالولولة أو إعداد المواد المتفجرة على أمل القضاء عليهم، علينا أن نهيئ أنفسنا بما يتفق والوضع الجديد. هذا ما توصلت إليه. لا يتعلق الأمر بما يريده الإنسان لبني جنسه، بل بما تشير إليه الحقائق. وذاك هو المبدأ الذي تصرفت وفقه. المدن والأمم والحضارة والتقدم ... كل شيء انتهى. انتهى أمرنا. قُضي علينا.»

– «لكن إذا كان الوضع كذلك، فماذا تبقى لنحيا من أجله؟»

– «لن يكون هناك مزيد من الحفلات الموسيقية الممتعة مدة مليون عام أو نحو ذلك، لن تكون هناك أي «أكاديمية ملكية للفنون»، ولا طعام شهي في المطاعم. إذا كنت تسعى وراء اللهو والتسلية، فظني أن الأمر قد انتهى. إذا كانت تتبع سلوكيات معينة في قاعة الاستقبال أو كنت ممن يمقتون تناول البازلاء باستخدام السكين أو إسقاط حروف الهاء في أوائل الكلمات، فعليك أن تتخلص من تلك العادات. لن يكون لها استخدام فيما بعد.»

– «تعني ...»

– «أعني أن البشر مثلي سيواصلون الحياة ... من أجل الحفاظ على النسل. دعني أؤكد لك أني مصرٌّ على الحياة. ولو لم أكن مخطئًا، فستُظهر أنت أيضًا ما بداخلك عما قريب. لن يبيدونا. ولا أعني بذلك أيضًا أنهم سيمسكون بي ويروضونني ويسمِّنونني ويربونني كما لو كنت ثَوْرًا هادرًا. أُفٍّ لذلك! عجبًا لهؤلاء الزاحفين البنيِّين!»

– «لا تقصد أن تقول ...»

– «بل أقصد. سوف أواصل الحياة تحت أقدامهم. لقد خططت للأمر، وفكرت فيه مليًّا. نحن البشر قُضي أمرنا. نحن لا نعرف الكثير. علينا أن نتعلم قبل أن نحظى بالفرصة، وعلينا أن نحيا، ونواصل الاعتماد على أنفسنا ونحن نتعلم. أترى! هذا ما يتعين فعله.»

حدقت فيه مذهولًا، وأثَّر في كثيرًا عزم الرجل.

صحت: «يا الله! أنت محق بالفعل.» وأمسكت فجأة بيده.

قال وعيناه تلمعان: «فكرتُ في الأمر مليًّا، ما رأيك؟»

قلت: «استمر.»

– «حسنًا، مَن يريدون الإفلات من قبضتهم عليهم أن يستعدوا. وها أنا ذا أستعد. تأكَّد أننا لن نتحول جميعًا إلى حيوانات متوحشة، وهذا ما سيحدث. لهذا السبب راقبتُك؛ إذ خامرتني الشكوك. أصبحتَ هزيلًا. لم أكن أعرفك، أو أعرف عنك شيئًا. هؤلاء — مَن سكنوا تلك المنازل وشغلوا تلك الوظائف البائسة واعتادوا أن يسلكوا ذاك الطريق — لن يجدي وجودهم نفعًا. هؤلاء يفتقرون إلى الشجاعة في داخلهم، ليست لديهم أحلام تبعث على الفخر ولا رغبات تبعث على الفخر أيضًا، والإنسان الذي لا يمتلك هذا أو ذاك … يا إلهي! ماذا يمكن أن يكون سوى رعديد؟ هؤلاء اعتادوا أن يهرعوا إلى العمل … رأيت المئات منهم يحملون إفطارهم في يدهم يركضون مندفعين ويسرعون الخطى كي يلحقوا بقطارهم المتواضع الذي يستقلونه مستخدمين التذاكر الموسمية، وكل ذلك خشية أن يُفصلوا من عملهم؛ يعملون في وظائف لا يكلفون أنفسهم عبء فهمها، ويهرعون في طريق العودة خشية أن يتأخروا عن موعد العشاء، ويبقون في منازلهم بعد العشاء خوفًا من الشوارع الخلفية، ويقضون الليل مع زوجاتهم اللاتي تزوجوا بهن ليس لأنهم يريدونهن، بل لأنهم امتلكوا القليل من المال الذي يوفر لهم الأمان في خضم سعيهم المتعجِّل في ذلك العالم. يؤمِّنون على حياتهم ويستثمرون أموالهم مخافة التعرض للنوازل. وفي أيام الآحاد … يخافون من الآخرة، وكأن جهنم أُعدَّت للأرانب! المريخيون سيكونون مجرد عطيَّة من الله لهؤلاء. سينعمون بأقفاص فسيحة جذابة، وطعام مسمَّن، وتناسل موزون لا خوف. بعد أسبوع أو نحو ذلك من المطاردة في الحقول والأراضي على مِعَد خاوية، سوف يأتون ويُمسَك بهم عن طيب خاطر. وبعد قليل سيغمرهم السرور. سوف يتعجبون مما فعله الناس قبل أن يتولى المريخيون أمرهم. المتسكعون في الحانات، وأزيار النساء والمغنُّون … بوسعي أن أتخيلهم.» أضاف بنبرة رضا مشوبة بالأسى: «سيكون هناك الكثير والكثير من الإحساس والتدين بينهم. كثير من الأشياء رأيتها بعيني، لكنها لم تتجل أمامي بوضوح إلا في الأيام القليلة الأخيرة. كثيرون سيقبلون بالأمور على ما هي عليه … بدناء حمقى، وكثيرون سيختلج صدورهم شعور بأن ما يحدث ليس من الصواب في شيء، وأنه يتعين عليهم فعل شيء ما. ومتى فرضت

الأوضاع على الكثير من الناس شعورًا بأنه يتعين عليهم فعل شيء ما، فإن الضعفاء — ومن يصبحون على شاكلتهم من كثرة التفكير المشوب بالتعقيد — سيلتجئون إلى نوع من الدين الخانع، وسيسيطر عليهم شعور زائف بالورع وعلو المكانة، وسيخضعون أنفسهم لمشيئة الرب. الأغلب أنك رأيتَ الشيء نفسه. إنها فورة من مشاعر الذعر. ستمتلئ تلك الأقفاص بالترانيم والتراتيل ومظاهر الورع. أما أصحاب العقول الأبسط فسيجدون في الشبق سلواهم.»

توقف عن الكلام هنيهة.

«الأغلب أن هؤلاء المريخيين سيدجِّنون بعضهم، ويدربونهم على تنفيذ الحيَل ... من يدري؟ ... قد يزدادون تعلقًا بحيوانهم الأليف الذي بلغ من العمر ما يجعله يستحق القتل. وربما يتدرب البعض على اصطيادنا.»

صرخت: «كلّا! هذا مستحيل! ما من بشر ...»

قال المدفعي: «ما جدوى تكرار تلك الأكاذيب؟ ثمة أناس يفعلون ذلك عن طيب خاطر. من السخف أن ندَّعي غير ذلك!»

ووجدتُني أنصاع لما يقول.

قال: «لو طاردوني، يا إلهي، لو طاردوني!» وانخرط في تفكير كمِد.

جلست أتأمل ما قيل لي. لم أستطع التفكير في شيء أدحض به رأي الرجل. في الأيام التي سبقت الغزو المريخي، لم يكن أحد ليشك في تفوقي الذهني عليه؛ فأنا الكاتب المعروف والمتخصص في الموضوعات الفلسفية، وهو جندي في الجيش، لكنه سبقني في تكوين فكرة حول الوضع لم أدركها قط.

قلت على الفور: «ماذا ستفعل؟ أي خطط فكرت فيها؟»

بدا عليه التردد، ثم قال: «حسنًا، يُفترض بالسؤال أن يكون «ما الذي يتعين علينا فعله؟» علينا أن نبتكر أسلوب حياة يستطيع البشر معه أن يعيشوا ويتكاثروا، ويكونوا آمنين بدرجة تمكنهم من تربية أبنائهم. نعم ... تمهَّل قليلًا، وسوف أوضح لك ما أفكر فيه. من سيروَّضون من البشر سوف يعيشون حياتهم كما الحيوانات الأليفة، وفي غضون بضعة أجيال سوف يصبحون ضخامًا موفوري الدماء بلهاء! الخطر يكمن في أننا — نحن الذين سيرفضون الخضوع لهذا الترويض — سنعود إلى بربريتنا ... إنني أنوي الحياة تحت الأرض. كنت أفكر في مصارف المياه. مؤكد أن من لا يعرفون المصارف يفكرون في أمور مروعة، لكن يوجد أسفل لندن مساحات تبلغ أميالًا وأميالًا — مئات

الأميال — وبضعة أيام من المطر كفيلة بتنظيف هذه المساحات. المصارف الرئيسية كبيرة ومليئة بالهواء، ثم إن هناك القِباء، والسراديب، والمستودعات التي يمكن عمل ممرات تربط بينها وبين المصارف، وهناك أيضًا أنفاق السكة الحديدية. أرأيت؟ وهكذا نشكِّل جماعة من الرجال الأقوياء متفتحي العقول. لن ينضم إلينا أي من الضعفاء البلهاء.»

– «هل تقصد أنني معكم؟»

– «أنا أتحدث، أليس كذلك؟»

– «لن نتنازع في هذا الشأن. واصل الحديث.»

– «سنحتاج أيضًا نساء قويات البنية متفتحات العقول، سنحتاج أمهات ومعلمات. لن تكون لنا حاجة بالنساء المتكاسلات، ولا البائسات. لا يمكن أن ينضم إلينا ضعيف أو أحمق. ستستحيل الحياة واقعًا مرة أخرى، ولا بد لعديمي النفع والمزعجين والعابثين من الموت. إنه ضرب من ضروب الخيانة أن يعيشوا ويدنِّسوا الجنس البشري، فضلًا عن أنهم لن يكونوا سعداء. وفوق كل هذا الموت ليس أمرًا مرعبًا؛ الجُبن هو ما يجعله يبدو كذلك. وعلينا أن نجتمع في كل تلك الأماكن. ستكون ضاحيتنا لندن، وربما نعين حراسة ونتجول في الأرجاء عندما يبتعد المريخيون. ربما نلعب الكريكيت أيضًا. هكذا يمكننا إنقاذ الجنس البشري. أليس هذا أمرًا ممكنًا؟ لكن إنقاذ الجنس البشري ليس مشكلة في حد ذاته. المشكلة تكمن في التحول إلى البربرية. الأمر يتعلق بإنقاذ ما لدينا من معرفة وبتنميتها. وهنا يأتي دور أمثالك. هناك الكتب، وهناك النماذج التي يمكن الاحتذاء بها. علينا أن نهيئ أماكن آمنة كبيرة على مسافات عميقة، ونضع بها كل ما نستطيع من كتب، لا أقصد الروايات والأشعار، بل أقصد الأفكار، والكتب العلمية. هنا يأتي دور الرجال الذين هم على شاكلتك. علينا الذهاب إلى المتحف البريطاني وإحضار كل هذه الكتب. علينا على وجه التحديد الحفاظ على العلم وتعلم المزيد. علينا مراقبة هؤلاء المريخيين. بعضنا سيقوم بدور الجواسيس. وأهم شيء أن نترك المريخيين وشأنهم. حتى السرقة لا ينبغي لنا أن نقربها. إذا صادفناهم في الطريق، علينا الابتعاد عنهم فورًا. لا بد أن نؤكد لهم أننا لا ننوي شرًّا. هم كائنات ذكية، ولن يكترثوا بمطاردتنا لو أن لديهم كل ما يحتاجون إليه، ولو أنهم عرفوا أننا لسنا سوى طفيليات لا ضرر منها.»

توقف المدفعي، ووضع إحدى يديه المتسختين فوق ذراعي.

«وفي النهاية، قد لا نحتاج الكثير من الوقت للتعلم قبل أن ... فقط تخيل معي: أربعًا أو خمسًا من آلات القتال التابعة للمريخيين تنطلق فجأة تصوِّب الأشعة الحرارية

هنا وهناك دون أن يكون بداخلها أي مريخي، بل سيكون بداخلها هؤلاء الرجال الذين تعلموا. تخيل أنك تتحكم في إحدى آلاتهم المبهرة بشعاعها الحراري توجهه هنا وهناك! ما الذي سيهم إذا نسفتَ المكان بعد هجمة كهذه؟ أظن أن المريخيين سيفتحون أعينهم الجميلة! ألا تستطيع تخيلهم أيها الرجل؟ ألا تستطيع تخيلهم وهم يركضون ويهرعون، يلهثون ويستغيثون بآلاتهم الأخرى؟ وفي كل مرة يفاجَئون بوجود عطل ما. يصدرون أصوات هسيس وضجيج وقعقعة! ثم ينطلق الشعاع الحراري مرة تلو الأخرى. انظر ماذا حدث! لقد استعاد الإنسان هيمنته.»

استحوذت جرأة المدفعي الممزوجة بسعة الخيال، ونبرة اليقين والشجاعة التي تحلى بها على عقلي تمامًا فترة من الوقت. صدَّقت دونما تردد كل ما قاله عن تكهنه بشأن مصير البشر وإمكانية تطبيق مخططه المذهل، وعلى القارئ الذي يظنني سريع التأثر أو أحمق أن يقارن بين وضعه — وهو يقرأ الرواية في هدوء واطمئنان — وبين وضعي وأنا أربض خائفًا وسط الشجيرات أستمع لما يقوله المدفعي والخوف يربكني. تحدثنا على هذا النحو طوال الساعات الأولى من الصباح، ثم تسللنا خارج الشجيرات، وبعد أن ألقينا نظرة على السماء بحثًا عن المريخيين، أسرعنا في عجالة إلى المنزل الذي اتخذ منه ملجأً فوق تل «بيوتني». كان مخزنًا للفحم، وعندما رأيت العمل الذي عكف عليه أسبوعًا — حفرة يبلغ طولها بالكاد عشرة أمتار حفرها كي يصل إلى المصرف الرئيسي فوق تل «بيوتني» — بدأت أفكر في تلك الفجوة بين أحلامه وقدراته. بوسعي أن أحفر حفرة كهذه في يوم واحد. لكن اقتناعي بما قاله كان كافيًا لأن أشاركه العمل طوال الصباح وحتى بعد منتصف النهار. كانت لدينا عربة يد، وكنا نلقي مخلفات الحفر أمام الموقد. جددنا نشاطنا بتناول علبة من الحساء والخمر من خزانة الطعام المجاورة. وجدت راحة غريبة من ذلك العالم الغريب في هذا العمل المتواصل. وبينما نعمل معًا أعدت التفكير في مشروعه، وبسرعة انتابتني الاعتراضات والشكوك، لكني واصلت العمل طوال فترة الصباح وأنا سعيد للغاية بأني وجدت لنفسي هدفًا أعمل من أجله ثانية. بعد ساعة من العمل بدأت أفكر في المسافة التي لا بد من قطعها قبل الوصول إلى البالوعة، وفي احتمالات عدم الوصول إليها بالمرة. المشكلة التي واجهتني على الفور تعلقت بالسبب الذي يجعلنا نحفر هذا النفق الطويل في حين أن بإمكاننا الوصول إلى المصرف مباشرة من إحدى الفتحات المخصصة للوصول إلى المصارف. بدا لي أيضًا أن اختيار هذا المنزل لم يكن صائبًا، وأنه يتطلب حفر نفق طويل دون داع. وما إن بدأت أفكر في تلك الأمور، حتى توقف المدفعي عن الحفر، ونظر إلي.

قال: «نحن نبلي بلاءً حسنًا.» وضع مجرفته أرضًا، واستطرد: «دعنا نتوقف عن العمل قليلًا. أظن أن الوقت قد حان لاستكشاف المكان من فوق سطح المنزل.»

كنت أحبذ الاستمرار في العمل، وبعد قليل من الممانعة أمسك بمجرفته، وفجأة خطرت ببالي فكرة. توقفت، وتبعني في ذلك على الفور.

قلت: «لماذا كنت تتجول في الخارج بدلًا من البقاء هنا؟»

قال: «كنت أستنشق بعض الهواء. كنت سأعود. المكان يصبح أكثر أمانًا أثناء الليل.»

– «لكن ماذا عن العمل؟»

قال: «لا يمكننا أن نعمل طوال الوقت.» وفي غمضة عين رأيت حقيقة الرجل. تردد وأمسك بمجرفته، وقال: «علينا أن نستكشف المكان الآن. فلو اقترب أحد من هنا، لسمع صوت المجارف، وانقض علينا في غفلة منا.»

لم أكن قد عقدت العزم على معارضته بعد. ذهبنا معًا إلى السطح، ووقفنا فوق سلَّم نختلس النظر من الباب هناك. لم نر أيًّا من المريخيين، وجازفنا بالخروج على السطح محتميين بحاجز السقف.

ومن ذلك المكان حجبت مجموعة من الشجيرات الجزء الأكبر من «بيوتني»، لكننا استطعنا رؤية النهر في الأسفل — الذي بدا ككتلة فقاعية من العشب الأحمر — وأجزاء من «لامبيث» تغمرها المياه وتكسوها الحمرة. احتشد العشب الأحمر فوق الأشجار حول القصر القديم، وامتدت فروعه هزيلة يخلو منها أثر الحياة، وظهرت أوراقه المتغضنة من بين هذه الفروع. من بين الأمور الغريبة الاعتماد التام لتلك النباتات على الماء الجاري في انتشارها. في المكان حولنا لم يكن هناك أي أثر للعشب الأحمر. وعلى مسافة من «كينجستون»، تصاعد دخان كثيف، وهذا الدخان وضباب أزرق حجبا التلال ناحية الشمال.

بدأ المدفعي يخبرني عن نوعية البشر الذين لا يزالون في لندن.

قال: «ذات ليلة الأسبوع الماضي، أضاء بعض الحمقى الأنوار الكهربائية، وسطعت الأضواء في كل مكان في شارع «ريجنت» والسيرك، حيث اكتظ المكان بالسكارى رثي الثياب الذين يرسمون بالألوان على وجوههم. هكذا أخبرني رجل كان هناك. ومع طلوع النهار انتبهوا إلى إحدى آلات القتال الواقفة بالقرب من «لانجام» تنظر إليهم من أعلى. لا أحد يعلم كم من الوقت مر على وقوف تلك الآلة هناك. لا بد أنها بثت الرعب في نفوسهم.

تحركت الآلة على الطريق باتجاههم، والتقطت نحو مائة شخص ممن بلغ بهم السُّكر أو الخوف حدًّا أعجزهم عن الفرار.»

لحظات غريبة لن يوفيها أحد حقها في الوصف مهما قيل عنها!

وردًّا على أسئلتي، عاد المدفعي إلى الحديث عن خططه المبالغ فيها. زاد حماسه، وتكلم بلباقة بالغة عن احتمالية السيطرة على إحدى آلات القتال، حتى إنني عاودت تصديقه إلى حد ما. لكن بما أنني بدأت الآن أفهم شيئًا من طبيعته، فقد استطعت التكهن بتأكيده على عدم التعجل في فعل شيء. ولاحظت أنه صار متأكدًا الآن من قدرته شخصيًّا على التصدي للآلة العملاقة.

بعد فترة نزلنا إلى القبو. لم يبدِ كلانا رغبة في مواصلة الحفر، وعندما اقترح علي تناول وجبة لم أعترض. فجأة بدا عليه الكرم الشديد، وعندما انتهينا من الطعام، ذهب هنيهة ثم عاد ومعه سيجار فاخر. أشعلنا السيجار، وازداد شعوره بالتفاؤل. كان يعتبر مجيئي مناسبة مهمة.

قال: «توجد شمبانيا في القبو.»

قلت: «يمكننا أن نحقق نتيجة أفضل في الحفر إذا اكتفينا بشرب البورجوندي.»

أجابني: «كلا، أنا المُضيف اليوم. شمبانيا! يا لعظمة الرب! أمامنا عمل شاق للغاية! دعنا نأخذ قسطًا من الراحة ونستجمع قوانا في تلك الأثناء. انظر لتلك اليدين المتقرحتين!»

وتحقيقًا لفكرة الراحة هذه، أصرَّ على أن نلعب الورق بعد أن تناولنا الطعام. علَّمني لعبة البوكر، وقسمنا لندن بيننا؛ فأخذت أنا الجانب الشمالي وهو الجانب الجنوبي. قد يبدو الأمر غريبًا منافيًا للعقل من وجهة نظر القارئ المتزن، لكن هذا ما حدث بالفعل، والأغرب من هذا أني وجدت لعبة الورق وغيرها الكثير من الألعاب الأخرى شائقة للغاية.

كم هي غريبة عقول البشر! كم كان غريبًا أن نجلس — وجنسنا البشري على شفا الفناء أو الانحطاط المرعب، دون أي احتمال أمامنا سوى الموت في أبشع صوره — هكذا ونحن نلعب الورق على هذا النحو من الابتهاج. بعدها علَّمني لعبة البوكر، ثم هزمته ثلاث مرات في لعبة الشطرنج. عندما حلَّ الظلام قررنا المجازفة بإشعال أحد المصابيح.

بعد سلسلة متصلة من الألعاب تناولنا العشاء، وأنهى المدفعي ما تبقى من الشمبانيا. واصلنا تدخين السجائر. لم يعد هو نفسه ذلك الرجل الهُمام الذي سيحافظ على الجنس البشري والذي التقيته في الصباح. كان لا يزال متفائلًا، لكن تفاؤله كان

أقل حيوية وأكثر تفكُّرًا. أذكر أنه اختتم بالحديث عن صحتي، ولم يخل حديثه من الرتابة والتوقف كثيرًا. تناولت سيجارًا، وصعدت الطابق العلوي لألقي نظرة على الأضواء الخضراء البراقة التي تحدث عنها فوق تلال «هاي جيت».

في البداية حدقت النظر بحماقة عبر وادي لندن. كان الظلام يكتنف التلال الشمالية، وتوهجت النيران القريبة من «كينسنجتون» بلون أحمر، وبين الحين والحين كان أحد ألسنة اللهب الحمراء البرتقالية يتوهج ثم يخبو ويتلاشى وسط زرقة الليل القاتمة. كل ما تبقى من لندن كان متشحًا بالسواد. وعلى مقربة لاحظت ضوءًا غريبًا — وهجًا أرجوانيًّا باهتًا — يتراقص تحت نسيم الليل. بقيت فترة لا أعرف شيئًا عن مصدر هذا الضوء، ثم عرفت أنه لا بد أن يكون العشب الأحمر هو مصدر ذلك الإشعاع الخافت. وهنا تنبَّهت لدي مشاعر كانت ساكنة من قبل تتعلق بالتمييز وتقدير الأمور حق قدرها. ألقيت نظرة من هذا المكان على المريخ الذي بدا رائق الحمرة متوهجًا أعلى ناحية الغرب، ثم حدقت النظر طويلًا وفي جدية إلى الظلمة التي تكتنف «هامستيد» و«هاي جيت».

ظللت وقتًا طويلًا فوق السطح أتعجب من التغييرات الغريبة التي وقعت ذلك اليوم. تذكرت الحالات الذهنية التي مررت بها من وقت الصلاة التي أديتها في جوف الليل وحتى لعب الورق على هذا النحو السخيف. تملكني شعور قوي بالاشمئزاز. أذكر أني قذفت بالسيجارة بعيدًا في حركة رمزية. تبدَّى أمامي بوضوح المدى الذي بلغته من الحماقة. عقدت العزم على ترك هذا الحالِم الغريب الذي يفتقر إلى التنظيم مع طعامه وشرابه، وأن أتوجه إلى لندن. بدا لي أني قد أحظى هناك بأفضل فرصة في معرفة ما يفعله المريخيون والبشر. كنت لا أزال فوق السطح عندما بزغ ضوء القمر.

الفصل الثامن

لندن بلا حياة

بعد أن افترقت عن المدفعي نزلت التل، وسلكت طريق «هاي ستريت» عبر الجسر إلى «فولام». كان العشب الأحمر منتشرًا في كل مكان، وكاد يسد طريق الجسر، لكن أوراقه كانت مبيضة بالفعل في أجزاء منها بفعل المرض المنتشر الذي كان يقضي عليها بسرعة هائلة الآن.

على ناصية المجاز الممتد حتى محطة «بيوتني بريدج» وجدت رجلًا ممددًا على الأرض. كان شديد السواد كعامل تنظيف المداخن بفعل الغبار الأسود، وكان على قيد الحياة لكنه مخمور إلى حد أفقده قوته وقدرته على الكلام. لم أحصل منه على شيء سوى لعنات ونكزات ممزوجة بالغضب. أظن أنه كان يُفترض بي البقاء معه لولا التعبيرات البربرية التي ارتسمت على وجهه.

كان الغبار الأسود في كل مكان على طول الطريق من الجسر إلى الأمام، وازداد كثافة في «فولام». كانت الشوارع هادئة على نحو مخيف. حصلت على طعام — حامض وجافٍّ عفن — من أحد المخابز هناك. وعلى مسافة باتجاه «والام جرين» بدت الشوارع خالية من الذرور، ومررت بصف من المنازل المشتعلة؛ كانت الضوضاء الصادرة عن الحريق مصدرًا للشعور بالراحة الشديدة. وعندما تقدمت نحو «برومتون»، أصبحت الشوارع هادئة مجددًا.

هناك التقيت ثانية بالذرور الأسود في الشوارع وفوق الجثث. رأيت مجموعة من الجثث على طريق «فولام» كان أصحابها قد لقوا حتفهم قبل عدة أيام، لذا مررت بجانبهم مسرعًا. غطاهم الذرور الأسود، وأخفى ملامحهم، ونهشت الكلاب جثة أو اثنتين.

حيثما لم يكن هناك ذرور أسود، كان المكان أشبه بيوم الأحد في المدينة، حيث المتاجر المغلقة والمنازل الموصدة والستائر المسدلة، والهجر، والسكون. لم تخل بعض

الأماكن ممن يقومون بأعمال السلب والنهب، وإن اقتصر الأمر على متاجر المؤن والخمور. في أحد الأماكن كانت نافذة متجر لبيع الجواهر مكسورة، لكن من الواضح أن أحدًا قاطَع السارق، إذ رأيت ساعة وعددًا من السلاسل الذهبية مبعثرة على الرصيف. لم ألق بالًا للمس أي منها. وعلى مسافة أبعد رأيت امرأة رثة الثياب متكومة على دَرج أحد الأبواب ويدها الموضوعة على ركبتها مشجوجة وقد سال دمها على ثوبها البني الشبيه بلون الصدأ، بينما كونت زجاجة شمبانيا كبيرة مكسورة بركة فوق الرصيف. بدت المرأة غارقة في نومها، لكنها كانت ميتة.

كلما ازددت توغلًا في لندن زاد السكون عمقًا، لكنه لم يكن سكون الموت، بل سكون القلق والترقب. في أي وقت قد يضرب الدمار الذي أحرق من قبل الحدود الشمالية الغربية للعاصمة تلك المنازل ويتركها رمادًا. كانت مدينة مهجورة غير صالحة للسكنى …

في «ساوث كنسينجتون» كانت الشوارع خالية من الموتى ومن الذرور الأسود، وبالقرب منها سمعت صوت العواء للمرة الأولى. تسلل الصوت إلى حواسي على نحو كاد لا يُلحظ، كان تناوبًا له صوت النشيج ذا درجتين صوتيتين يدوي قائلًا: «أوولا، أوولا … أوولا، أوولا» في تعاقب دائم. عندما اجتزت الشوارع المتجهة شمالًا زادت حدة الصوت، ثم بدا وكأن المنازل والمباني تخمده وتقطعه مرة أخرى. علا الصوت كثيرًا في طريق «إجزيبشن رود». وقفت أحدق باتجاه حدائق «كنسينجتون جاردنز» وأنا أتعجب من ذلك العواء البعيد الغريب. بدا الأمر وكأن المنازل العديدة الخاوية هذه قد وجدت صوتًا تعبر به عن خوفها ووحشتها.

عوى ذلك الصوت الخارق «أوولا، أوولا، أوولا، أوولا»؛ فاجتاحت موجات هائلة منه الطريق الواسع المشمس بين المباني الشاهقة على جانبيه. استدرت نحو الشمال والدهشة تملؤني، واتجهت نحو البوابات الحديدية لمنتزه «هايد بارك». فكرت في دخول «متحف التاريخ الطبيعي» عنوة والعثور على طريق أصل من خلاله إلى قمم الأبراج لأكشف المنتزه من هناك، لكني قررت البقاء على الأرض حيث يكون الاختباء السريع ممكنًا، وهكذا سلكت طريق «إجزيبشن رود». كانت جميع المنازل الكبيرة على جانبي الطريق خالية يخيم عليها السكون، وكان لوقع أقدامي على الطريق صدى يُسمع. عند القمة، وبالقرب من البوابة، وقعت عيناي على مشهد غريب؛ حافلة مقلوبة وهيكل عظمي لحصان نُزع عنه اللحم. تملكتني الحيرة وقتًا، ثم واصلت السير نحو الجسر فوق بحيرة

«سربنتين». زادت حدة الصوت أكثر فأكثر، مع أني لم أر شيئًا فوق قمم المنازل على الجانب الشمالي من المنتزه باستثناء خيط من الدخان جهة الشمال الغربي.

دوى الصوت: «أوولا، أوولا، أوولا، أوولا» وبدا لي أنه قادم من الضاحية القريبة من منتزه «ريجنتس بارك». أثرت الصرخة الموحشة في عقلي. اختفت تلك الحالة النفسية التي كانت تلازمني، واستحوذ صوت العواء عليّ. وجدت نفسي مجهدًا للغاية، ومتقرح القدمين، وبدأت مرة أخرى أشعر بالجوع والعطش.

كان ذلك بعد انقضاء فترة الظهيرة. ما الذي يجعلني أتجول وحيدًا في مدينة الموتى هذه؟ لماذا أنا وحيد بينما لندن بالكامل ترقد في أكفانها السوداء؟ شعرت بوحشة تفوق الاحتمال. تذكرت أصدقاء قدامى كنت قد نسيتهم سنوات. فكرت في السموم داخل متاجر الكيميائيين وفي الكحوليات التي يخزنها تجار الخمور، وتذكرت الكائنَين المعاقرين للخمر اللذين — على حد علمي — يشاركانني هذه المدينة …

وصلت شارع أكسفورد عند نصب «ماربل آرش» التذكاري، وهناك أيضًا رأيت الذرور الأسود والعديد من الجثث، وشممت رائحة كريهة تنذر بالسوء تنبعث من أقبية بعض المنازل. زاد ظمئي كثيرًا بعد الحرارة التي تعرضت لها أثناء سيري الطويل. وبصعوبة بالغة نجحت في اقتحام إحدى الحانات، وحصلت على الطعام والشراب. شعرت بالإجهاد بعد تناول الطعام، ودخلت قاعة الاستقبال خلف المشرب، ونمت على أريكة مصنوعة من شعر حصان أسود وجدتها هناك.

استيقظت لأجد صوت العواء الكئيب: «أوولا، أوولا، أوولا، أوولا.» لا يزال في أذني. حلَّ الغسق، وبعد أن تناولت بعض البسكويت والجبن في المشرب، رأيت هناك خزانة لحفظ اللحوم، لكن لم أجد بها سوى اليرقات. تجولت عبر الميادين السكنية الهادئة إلى شارع «بيكر» — الميدان الوحيد الذي أذكره هو «بورتمان سكوير» — وهكذا وصلت أخيرًا إلى منتزه «ريجنتس بارك». عندما خرجت من أول شارع «بيكر» رأيت على مسافة بعيدة فوق الأشجار وسط صفاء سماء المغيب قلنسوة المريخي الذي كان يصدر ذلك العواء. لم أشعر بالخوف. دنوت منه كما لو كان الأمر طبيعيًّا. راقبته بعض الوقت، لكنه لم يتحرك. بدا أنه يقف ويصرخ لسبب لم أتبيَّنه.

حاولت التفكير في خطة، لكن صوت العواء الدائم أربك عقلي. ربما منعني تعبي الشديد من الشعور بالخوف. ومؤكد أن شعوري بالفضول لمعرفة سبب تلك الصرخة الرتيبة فاق شعوري بالخوف. استدرت بعيدًا عن المنتزه، وسلكت طريق «بارك رود»

— عازمًا على أن أدور حول المنتزه — متخذًا من شرفات المنازل غطاءً حتى تمكنت من رؤية ذلك المريخي الذي يعوي بلا حراك من ناحية «سانت جونز وود». وعلى بعد نحو مائتي متر من شارع «بيكر» سمعت عاصفة من النباح، ورأيت أول ما رأيت كلبًا يمسك بين فكيه قطعة لحم أحمر متعفن قادمًا نحوي تطارده مجموعة من الكلاب التي تتضور جوعًا. انعطف الكلب بعيدًا عني كي يتفاداني خشية أن أكون منافسًا جديدًا، ومع اختفاء أصوات النباح على الطريق الساكن، فرض صوت العواء المريخي نفسه من جديد.

رأيت آلة قابضة محطمة في منتصف الطريق إلى محطة «سانت جونز وود». في البداية ظننت أن منزلًا قد انهار على الطريق. وعندما تسلقت تلك الأنقاض انتفض جسدي لرؤية تلك الآلة العملاقة ممددة ومجساتها ملتوية ومحطمة ومعوجة بين الأنقاض التي تسببت فيها. كان الجزء الأمامي مهشمًا. بدا وكأنها قد اندفعت على غير هدى نحو المنزل مباشرة، وأن المنزل انهار فوقها. بدا لي بعدها أن ذلك ربما يكون قد حدث بسبب إفلات الآلة القابضة من سيطرة المريخي المسئول عنها. لم أستطع تسلق الأنقاض لأراها، وحينها كان قد مر وقت على بدء ظهور الشفق، فلم أستطع رؤية الدماء التي تلطخ بها مكان المريخي ولا غضروف المريخي المتآكل الذي خلفته الكلاب.

بينما الدهشة تساورني من كل ما رأيت، اندفعت نحو «بريمروز هيل». وفي مكان بعيد — ومن خلال فتحة وسط الأشجار — رأيت مريخيًّا ثانيًا لا يحرك ساكنًا كما الأول يقف في المنتزه باتجاه حدائق «زولوجيكال جاردنز» هادئًا. وعلى بعد مسافة قليلة من الحطام الموجود حول الآلة القابضة المحطمة التي قابلتها في طريقي، شاهدت العشب الأحمر مجددًا، ورأيت قناة «ريجنتس كانال» وقد بدت كتلة إسفنجية من نبات أحمر قان.

وبينما كنت أعبر الجسر، توقف الصوت: «أوولا، أوولا، أوولا، أوولا.» أو قُطع إذا جاز التعبير. وحل الصمت على المكان كهزيم الرعد.

وقفت المنازل المغبَّرة حولي باهتة شاهقة الارتفاع معتمة، وكانت الأشجار في اتجاه المنتزه تزداد اسودادًا. وفي كل مكان حولي تسلق العشب الأحمر بين الأنقاض يتلوى ليصل إلى ارتفاع أعلى مني وسط العتمة. كان الليل — مصدر الخوف والغموض — يحل عليّ. لكن عندما كان ذلك الصوت قائمًا، كان بوسعي تحمل الوحشة والعزلة؛ بفضله بدت لندن وكأنها لا تزال حية، وشدَّ من أزري الإحساس بالحياة من حولي. وفجأة حدث

تغير وانقضى شيء ما — لم أكن أعرف ما هو — ثم ساد السكون؛ لا شيء سوى ذلك السكون الكئيب.

حدَّقتُ في لندن من حولي كما الأشباح. كانت نوافذ المنازل البيضاء تشبه محاجر العين في الجماجم. رأيت في مخيلتي أعدادًا مهولة من أعداء يتحركون في كل مكان حولي دون أن يصدروا صوتًا. تملكني شعور بالرعب والنفور من طيشي. من أمامي أصبح الطريق حالك السواد وكأنه مغطى بالقطران، ورأيت هيكلًا ملتويًا يرقد في الطريق. لم أستطع حمل نفسي على التقدم. انعطفت في طريق «سانت جونز وود»، وفررت مسرعًا من ذلك السكون الذي لا يحتمل نحو «كيلبيرن». اختبأت من الليل ومن السكون حتى بعد انقضاء منتصف الليل بكثير داخل مأوى لسيارات الأجرة في طريق «هارو رود». لكن قبل الفجر استعدت شجاعتي، وبينما لا تزال النجوم في السماء استدرت مرة أخرى نحو منتزه «ريجنتس بارك». ضللت الطريق بين الشوارع، وبعدها بقليل رأيت على طول طريق طويل — في الضوء الخافت للساعات الأولى من الفجر — منعطف تل «بريمروز هيل». على القمة كان مريخي ثالث يكاد يصل في ارتفاعه إلى النجوم الآفلة قائمًا بلا حراك مثل الآخرين.

استحوذ عليّ قرار جنوني. أفضل أن أموت وأضع نهاية لما أنا فيه. وأفضل أن أوفر على نفسي مشقة قتلها. تقدمت بلا روية نحو ذلك العملاق، وعندما اقتربت واشتد الضوء، رأيت حشدًا من الطيور السوداء تحوم وتتجمع حول القلنسوة. عند رؤية ذلك المشهد خفق قلبي بشدة، وشرعت أركض على الطريق.

أسرعت وسط العشب الأحمر الذي سدَّ طريق «سانت إدموندز تيراس» (خضت سيلًا من المياه كان يتدفق من محطة المياه باتجاه طريق «ألبرت رود» حيث وصل ارتفاع الماء إلى صدري)، وخرجت منه فوق أرض معشوشبة مع شروق الشمس. تراكمت كومات هائلة من الطين حول قمة التل لتشكل معقلًا مهولًا — كان آخر وأكبر مكان أعدَّه المريخيون — ومن وراء تلك الكومات تصاعد خيط من الدخان نحو السماء. رأيت كلبًا يركض وقد بدا عليه الاضطراب، ثم ما لبث أن اختفى. أصبحت الفكرة التي خطرت ببالي أكثر واقعية وأكثر منطقية. لم أشعر بالخوف؛ فقط شعرت بابتهاج مفرط مشوب بالرجفة وأنا أركض عبر التل نحو الوحش الواقف بلا حراك. ومن خارج القلنسوة تدلت بقايا بنية اللون ضامرة تنقرها الطيور الجائعة وتمزقها.

في لحظة أخرى اندفعت متسلقًا المعقل الأرضي، ووقفت على قمته حتى أصبح باطن المعقل أدنى مني. كان فراغًا شاسعًا به آلات عملاقة هنا وهناك، وتلال ضخمة من المواد،

وأماكن إيواء غريبة، ينتشر حولها المريخيون وقد فارقوا الحياة؛ بعضهم داخل آلات القتال المقلوبة والبعض داخل الآلات القابضة الجامدة حينئذ، وعشرات منهم متصلبون ساكنون يرقدون صفًّا واحدًا. قُتل المريخيون بفعل البكتيريا المسببة للتعفن التي لم تكن أجسامهم مهيأة لها، انتهت حياتهم مثلما انتهت حياة العشب الأحمر، انتهت حياتهم — بعد إخفاق كل آلات البشر — بفضل أوهن الكائنات التي أوجدها الرب لحكمةٍ على هذه الأرض.

هكذا انتهى الأمر، والواقع أنه كان بإمكاني أنا وغيري من البشر أن نتوقع ذلك لولا أن الهلع والفاجعة شلّا تفكيرنا. تلك الجراثيم حصدت أرواح البشر منذ بدء الخليقة؛ حصدت أرواح أسلافنا الذين سبقوا ظهور الجنس البشري منذ بدء الحياة هنا. لكن بفضل الانتخاب الطبيعي الذي مر به نوعنا، تكونت لدينا قوة مقاومة؛ فنحن لا نموت بسبب أي نوع من أنواع البكتيريا من دون صراع، فضلًا عن أن أجسادنا محصنة تمامًا ضد العديد منها مثل ما يسبب التعفن في المادة الميتة على سبيل المثال. أما في المريخ فلا وجود للبكتيريا؛ وما إن وصل هؤلاء الغزاة إلى الأرض، وما إن شربوا وتغذوا حتى بدأ حلفاؤنا المجهريون في العمل على الإطاحة بهم. عندما وقعت عيناي عليهم، كانوا قد هلكوا بلا رجعة، كانوا يحتضرون، بل يتعفنون وهم يتحركون هنا وهناك. لم يكن ثمة مفر. بحصيلة من الموتى بلغت المليارات اكتسب الإنسان حقه الأصيل في هذه الأرض، وهي مكانه في مواجهة كل الغزاة، وكانت ستظل مكانه لو بلغت قوة المريخيين عشرة أضعاف ما كانوا عليه. ذلك أن الإنسان لا يحيا أو يموت عبثًا.

انتشر المريخيون في كل مكان، وبلغوا من العدد نحو خمسين داخل تلك الهوة الشاسعة التي أحدثوها، بعد أن باغتهم الموت الذي لا بد أنه بدا غير مفهوم لهم شأنه شأن أي موت آخر. بدا لي ذلك الموت غير مفهوم أيضًا في هذا الوقت. كل ما كنت أعرفه أن تلك الكائنات التي كانت حية ومرعبة في نظر البشر صارت ميتة الآن. فكرت هنيهة أن الدمار الذي تسبب فيه الملك «سنحاريب» قديمًا قد تكرَّر، وأن الرب قد تأسف لما حدث، فانتزع ملك الموت أرواح تلك الكائنات في الليل.

وقفت أحدق في الحفرة، واستراح قلبي كثيرًا في نفس اللحظة التي أشرقت فيها الشمس لتغمر العالم بأشعتها. كانت الحفرة لا تزال ظلماء، وبدت المحركات الضخمة — التي كانت هائلة وعجيبة في قوتها وتعقيدها وغير مألوفة لسكان الأرض بأشكالها المتمعجة — ظلالًا غريبة غير واضحة. أمكنني سماع عدد كبير من الكلاب تتنازع على

الجثث التي ترقد في الظلام في أعماق الحفرة أسفل مني بمسافة كبيرة. في الجانب الآخر من الحفرة وعلى طرفها البعيد، طُرحت آلة الطيران الضخمة التي كانوا يستخدمونها في إجراء التجارب على غلافنا الجوي الأكثر كثافة عندما باغتهم التعفن والموت. نزل بهم الموت في الوقت المناسب تمامًا. عندما سمعت صوت نعيب فوقي، رفعت بصري إلى آلة القتال الضخمة التي لن تقاتل بعد الآن أبدًا، ورأيت البقايا الحمراء الممزقة للحم الذي تقطر على المقاعد المقلوبة فوق قمة تل «بريمروز هيل».

استدرت ونظرت نحو سفح التل حيث المكان الذي كان يقف فيه المريخيان اللذان رأيتهما الليلة الماضية عندما باغتهما الموت والذي أحاطت به الطيور الآن من كل جانب. مات المريخي في نفس اللحظة التي كان يصرخ فيها لرفاقه، ربما كان هو آخر من لقي حتفه منهم، واستمر صوته دون انقطاع إلى أن استُنزفت قوة آلته. لمع المريخيان الآن؛ هيكلان ثلاثيا القوائم من المعدن اللامع لا يسببان أي أذى تحت ضوء الشمس الساطعة.

وفي كل مكان حول الحفرة امتدت «أم المدن» العظيمة وقد أنقذتها معجزة من الدمار الأبدي. يصعب على أولئك الذين لم يروا لندن إلا وهي متشحة بغيامات الدخان السوداء أن يتخيلوا صفاء تلك المنازل الساكنة وجمالها.

ناحية الشمال كانت منطقتا «كيلبيرن» و«هامستيد» زرقاوين ومزدحمتين بالمنازل، وناحية الغرب كانت المدينة الكبيرة معتمة، وناحية الجنوب — فيما وراء المريخيين — ظهرت الامتدادات الخضراء لمنتزه «ريجنتس بارك»، وقبة قاعة «ألبرت هول»، و«المعهد الإمبريالي»، وطريق «برومتن رود» واضحة وضئيلة في ضوء الشمس، بينما أنقاض «وستمنستر» ذات التضاريس ترتفع ضبابية في الخلف. وبعيدًا جدًّا ظهرت تلال «سَري» بزرقتها، ولمع برجا «كريستال بالاس» كقضبين فضيين. أيضًا كانت قبة كاتدرائية «سانت بولز» مظلمة قبالة ضوء الشمس، ولأول مرة رأيت الدمار وقد أصابها بفعل فتحة كبيرة أصابت الجانب الغربي منها.

وبينما كنت أنظر في ذلك الامتداد الشاسع من المنازل والمصانع والكنائس الساكنة والمهجورة، وبينما كنت أفكر في الجهود والآمال التي لا تعد ولا تحصى والحشود التي لا حصر لها والتي بنت هذا الصرح البشري، وفي الدمار السريع والهمجي الذي أوشك على أن ينزل بها جميعًا، وعندما تذكرت أن العتمة قد انحسرت، وأن البشر ربما لا يزالون على قيد الحياة في الشوارع، وأن مدينتي الفسيحة الغالية التي خيم عليها شبح الموت استعادت حياتها وقوتها مرة أخرى، اجتاحتني موجة من المشاعر أقرب ما تكون إلى البكاء.

ها قد انتهى العذاب أخيرًا، بل وستبدأ المداواة في ذلك اليوم. سينتشر الناجون من البشر في كل مكان في المدينة — بلا قائد أو قانون أو طعام مثل قطيع من الأغنام بلا راع — والآلاف الذين فروا عن طريق البحر سيبدءون العودة، وسيخفق نبض الحياة — الآخذ ازديادًا في القوة — مجددًا في الشوارع الخالية ويتدفق في الميادين المهجورة. أيًّا كان ما وقع من دمار، فإن قبضة المدمِّر قد كفَّت. كل الأنقاض الموحشة وهياكل المنازل التي تحدق وسط جو مشحون بالكآبة في عشب التل المضيء بضوء الشمس سوف يصدر منها عما قريب صوت مطارق من يقومون بأعمال الإصلاح ودوي ضرب المجارف في الأرض. عند التفكير في ذلك رفعت يدي إلى السماء وشكرت الرب؛ للمرة الأولى طوال عام على ما أظن.

وبقوة عارمة تملكني التفكير في نفسي، وزوجتي، وحياة الأمل التي كنا نحياها، والاستعداد الجميل لتقديم يد العون أحدنا للآخر.

الفصل التاسع

أطلال

الآن نصل إلى الأمر الغريب في روايتي؛ مع أنه قد لا يكون غريبًا تمامًا. أذكر — بوضوح وفتور وحيوية — كل ما فعلته في ذلك اليوم حتى اللحظة التي وقفت فيها أذرف الدمع وأشكر الرب فوق قمة تل «بريمروز هيل». وبعدها أصبح كل شيء في طي النسيان.

لا أذكر شيئًا من الأيام الثلاثة التالية. علمت — بعيدًا عن كوني أول من اكتشف نهاية المريخيين — أن العديد ممن كانوا يهيمون على وجوههم مثلي قد سبق لهم اكتشاف الأمر الليلة السابقة. ذهب أحد الرجال — أول من اكتشف الأمر — إلى شارع «سانت مارتينز لو جراند»، وبينما كنت أحتمي داخل سقيفة سائقي سيارات الأجرة، تمكن هو من إرسال برقية إلى باريس. ومن ثم عمَّت الأخبار المبهجة أنحاء العالم؛ فجأة أضاءت العديد من المدن — التي ارتعدت من المخاوف المفزعة — أنوارها الساطعة؛ انتشرت الأخبار في «دبلن» و«إدنبره» و«مانشستر» و«بيرمنجام» في الوقت الذي كنت أقف فيه على حافة الحفرة. بدأ الرجال — وهم يبكون فرحًا مثلما سمعت ويصيحون ويتوقفون عن العمل ليصافح بعضهم بعضًا — في إصلاح القطارات ليستقلوها حتى لندن. وصلت الأخبار فجأة أجراسَ الكنيسة التي كانت قد توقفت عن القرع مدة أسبوعين منذ غزو المريخيين حتى أصبحت الأجراس تدق في لندن بأكملها. كان الرجال يركبون الدراجات نحيلي الوجوه شُعثًا، ينطلقون مسرعين في كل طريق في البلدة يصيحون في الوجوه الواهنة المحدقة من فرط اليأس. وفيما يخص الغذاء، كان الذرة والخبز واللحم يتدفق إلينا بغية إغاثتنا عبر بحر المانش والبحر الأيرلندي والمحيط الأطلنطي. بدا أن كل الشحنات في العالم تتجه نحو لندن في تلك الأيام. لكنني لا أتذكر شيئًا من كل هذا. لقد مسَّني الجنون. وجدت نفسي في منزل أناس عطوفين عثروا عليّ في اليوم الثالث أهيم على وجهي وأبكي وأهذي في شوارع «سانت جونز وود». أخبروني أني كنت أتغنى

بكلام هزلي جنوني. ومع أن هؤلاء الأشخاص — الذين لن أذكر أسماءهم هنا حتى على الرغم من أني أود التعبير لهم عن عميق امتناني — كانوا مهمومين بتدبير شئونهم، فقد تحملوا عبء الاهتمام بي، ووفروا لي المأوى، وحمُوني من نفسي. كان واضحًا أنهم علموا مني شيئًا عن قصتي خلال الأيام التي فقدت فيها عقلي.

وبكثير من اللِّين — عندما استعدت عقلي ثانية — أخبروني بما علموه عن مصير «ليذرهيد». دُمِّرَت «ليذرهيد» بعد يومين من محبسي بجميع مَن فيها من أحياء على يد أحد المريخيين. محاها المريخي من الوجود — كما بدا — دون أن يستفزه أحد كطفل يسحق بيت نمل في مجرد نزوة يشعر خلالها بالقوة.

كنت وحيدًا، وأغدقوا علي من عطفهم. كنت وحيدًا بائسًا، فصبروا عليّ. بقيت معهم أربعة أيام بعد شفائي. طوال ذلك الوقت شعرت بحنين متزايد ومبهم لأن ألقي نظرة من جديد على ما تبقى من الحياة الصغيرة التي بدت غاية في السعادة والبهجة في ماضيّ. كانت مجرد رغبة بائسة في إلقاء نظرة على تعاستي، لكنهم أثنوني عن فعل ذلك. بذلوا أقصى ما في وسعهم من أجل إلهائي عن كآبتي، غير أنني في النهاية لم أستطع مقاومة الرغبة أكثر من ذلك، ووعدتهم وعدًا صادقًا أني سأعود إليهم. فارقت هؤلاء الأصدقاء الذين قضيت معهم أربعة أيام بالدموع لأخرج مرة أخرى إلى الشوارع التي كانت مؤخرًا معتمة غريبة مهجورة.

كانت الشوارع في ذلك الوقت مكتظة بالعائدين، بل إن بعض المتاجر فتحت أبوابها، ورأيت سبيل مياه يفيض بمياه صالحة للشرب.

أذكر كيف بدا اليوم صافيًا على نحو يبعث على السخرية وأنا في طريق العودة في رحلتي المثيرة للابتئاس إلى المنزل الصغير في «ووكينج»، وكيف كانت الشوارع مزدحمة، والحياة مفعمة بالحيوية من حولي. رأيت العديد من الناس في الخارج في كل مكان مشغولين بأعمال كثيرة حتى إنه بدا غير معقول أن جزءًا كبيرًا من السكان قد لقي حتفه. لكني حينئذ لاحظت كم كانت وجوه الأشخاص الذين التقيتهم شاحبة وشعور الرجال شعثاء، وكم أن عيونهم متسعة لامعة، فضلًا عن أن الجميع لا يزالون يرتدون أسمالهم البالية. ظهر على كل الوجوه تعبير واحد من اثنين؛ إما حيوية وابتهاج هائلين، أو ثبات مشوب بالتجهم. وباستثناء التعبيرات التي ارتسمت على الوجوه، بدت لندن مدينة لعابري السبيل. كانت مجالس الكنائس توزع دون تمييز الخبز الذي أرسلته لنا الحكومة الفرنسية. برزت ضلوع الخيول القليلة على نحو مؤسف. ووقف رجال الشرطة

منهكين عند ناصية كل شارع. رأيت القليل من الدمار الذي أحدثه المريخيون حتى وصلت شارع «ويلينجتون»، وهناك رأيت العشب الأحمر يعتلي دعامات جسر «ووترلو بريدج».

عند زاوية الجسر أيضًا رأيت واحدًا من تلك التناقضات التي شاعت في تلك الفترة الغريبة؛ ورقة تتمايل أمام أيكة من العشب الأحمر مثبَّتة في مكانها باستخدام عصا. كان إعلانًا لأول صحيفة تستأنف النشر وهي صحيفة «ديلي ميل». ابتعتُ نسخة بشِلِن مسودٍّ كان في جيبي. كانت الصحيفة في أغلبها خالية من الأخبار، لكن مسئول الطباعة الذي كان يشعر بالعزلة والذي كتب العدد سلَّى نفسه بعمل مخطط إعلانات غريب في الصفحة الأخيرة. لم أحصل على أي أخبار جديدة باستثناء أنه في أسبوع واحد خرج الفحص الذي خضعت له معدات المريخيين بنتائج مذهلة. ومن بين أشياء أخرى، أكد المقال لي صحة ما فكرت فيه من قبل؛ لقد اكتُشف «سر الطيران». في ووترلو وجدت القطارات التي تقل الناس إلى منازلهم دون مقابل. انتهت الموجة الأولى من العائدين. كان هناك عدد قليل من الأشخاص داخل القطار، ولم أكن في حالة تسمح لي بتجاذب أطراف حديث عابر مع أحد. دخلت مقصورة مستقلة، وجلست مربعًا ذراعيَّ أنظر مغتمًّا من النافذة إلى الدمار الذي تلقي عليه الشمس بضوئها. وبالقرب من المحطة الأخيرة ارتج القطار فوق قضبان مؤقتة، وعلى جانبي السكة الحديدية كانت المنازل حطامًا مغطى بالسواد. ناحية محطة «كلابهام جنكشن» كانت لندن مغطاة بالدخان الأسود بالرغم من مرور يومين من الأمطار والعواصف الرعدية، وفي المحطة نفسها كان خط السكة الحديدية قد لحق به الدمار هو الآخر. كان هناك مئات الموظفين وأصحاب المتاجر المتعطلون عن العمل يعملون جنبًا إلى جنب مع عمال الحفر الاعتياديين.

على طول الخط من هناك كان منظر المدينة كئيبًا غريبًا، وكانت «ويمبلدون» الأكثر تضررًا. أما «والتون»، فبدت الأقل تضررًا من بين كل الأماكن بفضل غابات الصنوبر التي لم تمسها النيران فيها. بدا نهر «واندل» و«مول» وأي مجرى مائي صغير آخر كتلة متكومة من العشب الأحمر لونها وسطٌ بين لحم الجزار ومخلل الملفوف الأحمر. مع هذا كانت غابات صنوبر «سَري» شديدة الجفاف على نمو أوراق العشب الأحمر. وفي أحد المشاتل بعيدًا عن «ويمبلدون» — في نطاق الرؤية من خط السكة الحديدية — رأيت كومات متراكمة من التربة الطينية حول الأسطوانة السادسة. كان عدد من الأشخاص واقفين حولها، وبعض الجنود المسئولين عن الأعمال الهندسية مشغولين في المنتصف.

وفوق الحفرة كان العلم الإنجليزي يرفرف في بهجة وسط نسيم الصباح. كانت أرض المشتل قرمزية في كل أرجائها بسبب العشب الأحمر — امتداد شاسع من لون أزرق رمادي تتخلله ظلال أرجوانية — وكانت مجهِدة للعين كثيرًا. تحولت نظرتي من اللون الرمادي الباهت واللون الأحمر الكئيب أمامي إلى الخضرة المائلة للزرقة للتلال ناحية الشرق وهو ما جعلني أشعر بارتياح لانهائي.

لا تزال عمليات الترميم قائمة على خط السكة الحديدية في محطة «ووكينج»، ولذا نزلتُ في محطة «بايفليت» وسلكت الطريق إلى «مايبري» مرورًا بالمكان الذي تحدثت فيه أنا والمدفعي مع الفرسان، ثم المكان الذي رأيت فيه المريخي في العاصفة الرعدية. وبدافع الفضول استدرت لأرى — وسط مجموعة متشابكة من أوراق العشب الحمراء — العربة المكسورة وعظام الحصان البيضاء متناثرة ومتآكلة. وقفت بعض الوقت أرقب تلك الآثار …

ثم عدت عبر غابة الصنوبر والعشب الأحمر يصل إلى عنقي إلى حانة «سبوتيد دوج» التي لقي صاحبها حتفه، وهكذا وصلت المنزل مارًّا بمبنى «كوليدج آرمز». كان هناك رجل يقف على باب كوخ مفتوح حيَّاني باسمي عندما مررت به.

نظرت إلى منزلي ولدي بصيص أمل ما لبث أن تلاشى على الفور. كان الباب مفتوحًا عنوة؛ وكان يتحرك منفتحًا في بطء مع اقترابي.

صُفق الباب ثانية. رفرفت ستائر غرفة مكتبي خارج النافذة المفتوحة حيث كنت أنا والمدفعي نراقب الفجر منها. لم يغلق أحد النافذة منذ ذلك الحين. كانت الشجيرات المسحوقة تمامًا مثلما تركتها قبل نحو أربعة أسابيع. سرت مضطربًا نحو الردهة، وبدا المنزل خاليًا. كانت سجادة الدرَج متغضنة باهتة اللون من أثر جلوسي عليها وأنا مبتل حتى العظام من العاصفة الرعدية التي تعرضت لها ليلة الكارثة. رأيت آثار أقدامنا الملطخة بالطين تصل إلى أعلى الدرج.

تبعت هذه الآثار حتى غرفة مكتبي، ووجدت أوراق العمل التي تركتها ظهيرة اليوم الذي انفتحت فيه الأسطوانة لا تزال على طاولة الكتابة وفوقها ثقالة الورق. وقفت فترة أقرأ ما كتبت. كان بحثًا عن التطور المحتمل للأفكار الأدبية مع تطور عملية التمدُّن، وكانت آخر جملة هي افتتاحية النبوءة، وفيها كتبت: «في غضون نحو مائتي عام، ربما نتوقع …» انتهت الجملة فجأة. تذكرت — وقد مرَّ نحو شهر الآن — عجزي عن التركيز ذلك الصباح، وكيف أني توقفت فجأة للحصول على نسخة من جريدة «ديلي كرونيكل»

من بائع الصحف. أتذكر كيف أني نزلت إلى بوابة الحديقة أثناء مروره بها، وكيف أني استمعت إلى قصته الغريبة حول «البشر القادمين من المريخ».

نزلت الطابق السفلي، ودخلت حجرة الطعام. رأيت لحم الضأن والخبز — وقد بلغا مبلغًا من التعفن — وزجاجة خمر مقلوبة بعد أن تركناها أنا والمدفعي. كان منزلي مهجورًا. أدركت حماقة ذلك البصيص من الأمل الذي تعلقت به. وبعدها وقع أمر غريب. سمعت صوتًا يقول: «لا فائدة. المنزل مهجور. لم يأت أحد إلى هنا تلك الأيام العشرة. لا داعي للبقاء هنا، وتعذيب نفسك. لم ينج أحد سواك.»

تملكني الذعر. هل تحدثتُ بما أفكر فيه بصوت عال؟ استدرت، وكانت النافذة الفرنسية مفتوحة خلفي. تقدمت منها خطوة، ووقفت أحدق النظر.

وهناك — وسط مزيج من الذهول والخوف — رأيت ابن عمي وزوجتي التي كانت شاحبة عصيَّة الدمع. أطلقت صرخة خافتة.

قالت: «ها قد جئت. كنت أعرف ... كنت أعرف ...»

وضعت يدها على حلقها، ثم ترنحَت. تقدمت نحوها، واحتضنتها.

الفصل العاشر

خاتمة

لَمَّا كنت أختتم روايتي الآن، فليس أمامي سوى الشعور بالأسى حيال عجزي عن التطرق إلى الأسئلة الجدلية الكثيرة التي لم يُحسم أمرها بعد. من جانب، مؤكد أن ما أقول سيكون مثار نقد. مجال تخصصي هو الفلسفة النظرية، ومعرفتي بعلم الفسيولوجيا المقارَن قاصرة على كتاب أو اثنين، لكن يبدو أن اقتراحات كارفر بشأن السبب الذي أدى إلى موت المريخيين سريعًا معقولة للغاية حتى إنها تكاد تكون نتيجة مؤكدة، وهو ما افترضته في روايتي.

وعلى كل حال، فإنه في جميع أجساد المريخيين التي شُرِّحت بعد انتهاء الحرب، لم يُعثر على أي بكتيريا عدا تلك الفصائل المعروفة على سطح الأرض. حقيقة أنهم لم يدفنوا أيًّا من موتاهم، إضافة إلى القتل العشوائي الذي اقترفته أياديهم يشيران إلى أنهم لا يعرفون أي شيء عن عملية التعفن. وعلى ما يبدو، فإن هذه نتيجة مؤكدة.

لا يزال تركيب «الدخان الأسود» — الذي استخدمه المريخيون وكان أثره مميتًا — غير معروف، وكذا لا يزال مولِّد الأشعة الحرارية لغزًا. الكوارث المفزعة التي وقعت في مختبرات «إيلينج» و«كينسنجتون» أثنت المحللين عن إجراء المزيد من الفحوص على مولِّد الأشعة الحرارية. أما التحليل الطيفي للذرور الأسود فقد أشار قطعًا إلى وجود عنصر مجهول الهوية ذي مجموعة برَّاقة من ثلاثة خطوط من اللون الأخضر، ومن المحتمل أنه يمتزج مع الأرجون ليشكِّل مركبًا يؤثر في بعض مركبات الدم مما يسبب الوفاة على الفور. لكن هذه التخمينات غير المؤكدة لن تفيد القارئ العادي الذي أوجه له هذه الرواية في شيء. لم يجر فحص أي من الزبَد البني الذي كان ينجرف مع مياه نهر «التيمز» بعد الدمار الذي لحق بمدينة «شيبرتون» وقتها.

سبق أن تحدثت عن نتائج الفحص التشريحي لما تركته الكلاب الهائمة من أجسام المريخيين. لكن الجميع على دراية بالنماذج الرائعة التي تكاد تكون مكتملة في «متحف التاريخ الطبيعي»، والرسومات التي لا حصر لها والتي وضعت لها، وفيما عدا ذلك يكون الاهتمام بتكوينهم الفسيولوجي أمرًا علميًّا بحتًا.

المسألة الأكثر خطورة التي تحظى باهتمام عالمي تتعلق بإمكانية التعرض لهجوم آخر من المريخيين. كوكب المريخ حاليًّا في وضع اقتران مع كوكب الأرض، لكني أتوقع شخصيًّا تجدد هجومهم مع كل عودة تالية إلى وضع الاقتراب. على أي حال لا بد أن نعد العدة. يبدو لي أنه ربما يكون ممكنًا أن نحدد الموقع الذي انطلقت منه طلقاتهم، وأن نفرض رقابة دائمة على هذا الجزء من الكوكب حتى يتسنى لنا توقع الهجوم التالي.

وفي هذه الحالة ربما ندمِّر الأسطوانة باستخدام الديناميت أو المدافع قبل أن تنخفض درجة حرارتها بما يكفي لخروج المريخيين منها، أو ربما نقتل المريخيين أنفسهم بالمدافع ما إن تنفتح الأسطوانة. يخيل إلي أنهم فقدوا ميزة هائلة عندما أخفقوا في مفاجأتنا أول مرة، وربما يكون ذلك رأيهم أيضًا.

ذكر ليسينج أسبابًا رائعة تدعونا إلى افتراض نجاح المريخيين بالفعل في تثبيت أقدامهم على كوكب الزهرة. منذ سبعة أشهر الآن كان المريخ والزهرة متوازيين مع الشمس، ما يعني أن المريخ كان في وضع الاقتراب من منظور المشاهِد على كوكب الزهرة. لاحقًا ظهرت علامات مضيئة ملتوية على النصف غير المضيء لكوكب الزهرة، وتقريبًا في الوقت نفسه ظهرت علامة مظلمة ذات طبيعة ملتوية مشابهة على الصور التي التُقطت لكوكب المريخ. لا بد من رؤية هذه الصور الخاصة بهذه العلامات حتى يتسنى التأكد من التشابه الملحوظ بينها.

وعلى كل حال، سواء توقعنا غزوًا ثانيًا أم لا، لا بد من تغيير رؤيتنا فيما يتعلق بمستقبل البشر تغييرًا جذريًّا بعد هذه الأحداث. تعلمنا الآن أنه لا يمكننا النظر إلى هذا الكوكب بوصفه مكانًا محصنًا وآمنا للبشر. لا يمكننا أن نتوقع أبدًا الخير أو الشر الذي قد ينزل بنا فجأة من الفضاء الخارجي. ربما يبدو أن البشر قد استفادوا من هذا الغزو المريخي؛ فقد سلبنا ثقتنا المزوجة بالاطمئنان في المستقبل، علاوة على أنه أسفر عن فوائد هائلة للعلم البشري، وكان له دور كبير في تعزيز مفهوم المصلحة العامة للبشر. ربما يكون المريخيون في الفضاء قد شاهدوا مصير من أُرسلوا إلى الأرض في البداية، وتعلموا الدرس، ووجدوا مستقرًّا أكثر أمانًا على كوكب الزهرة. على الرغم من ذلك، فإنه

لسنوات عديدة تالية لن يكون هناك تراخ في تفحص كوكب المريخ، وسوف تجلب تلك السهام النارية التي تسقط من السماء والنجوم الساقطة معها خوفًا مؤكدًا لبني البشر.

لا يجوز المغالاة في الحديث عن اتساع نظرة البشر من جراء تلك الأحداث. قبل سقوط الأسطوانة كان ثمة اقتناع عام بأنه لا توجد حياة في الفضاء إلا على سطح هذا الكوكب الصغير. الآن يمكننا التفكير فيما هو أبعد من ذلك. لو أن المريخيين يستطيعون الوصول إلى كوكب الزهرة، فما من سبب يدعونا إلى افتراض استحالة حدوث الأمر نفسه مع البشر. وعندما تنخفض درجة حرارة هذا الكوكب بحيث لا يكون صالحًا للحياة، ربما تنتقل الحياة عندها إلى كوكب الزهرة الشقيق.

كونت في عقلي فكرة غامضة رائعة بشأن انتشار الحياة رويدًا رويدًا من المجموعة الشمسية إلى ذلك الفضاء الجامد بين الكواكب. لكنه حلم بعيد المنال. على الجانب الآخر، قد يكون الدمار الذي أحدثه المريخيون مجرد عقوبة أُرجئ تنفيذها. ربما يكون المستقبل مقدَّرًا لهم، لا لنا.

على الاعتراف بأن وطأة تلك الفترة وخطورتها قد خلَّفا في عقلي شعورًا بالشك وعدم الأمان. أجلس في مكتبي أكتب على ضوء المصباح، وفجأة أرى الوادي بعيدًا عني مرقطًا بكتل من اللهب المشتعلة، وأشعر بأن المنزل حولي خالٍ ومهجور. أخرج إلى طريق «بايفليت»، فتمر العربات من أمامي، وصبي الجزار في عربة جر، ومجموعة من الزائرين في سيارة أجرة، وعامل على دراجة، وأطفال في طريقهم إلى المدراس، وفجأة يصبح كل هذا مبهمًا غير حقيقي، وأهرع ثانية مع المدفعي وسط السكون المخيف. في الليل أرى الذرور الأسود يغطي الشوارع الساكنة بالسواد، وأرى الأجساد الملتوية مغطاة بالذرور الأسود، ثم تنهض أمامي ممزقة الثياب بها أثر من عض الكلاب. يثرثرون بكلام غير مفهوم ويزدادون وحشية وشحوبًا وقبحًا وكأنهم أصبحوا مسوخًا من بشر اعتراهم الجنون، ثم أستيقظ مرتجفًا تعسًا وسط ظلمة الليل.

أذهب إلى لندن وأرى الجموع النشطة في شارع «فليت» و«ستراند»، ويخطر ببالي أنهم ليسوا سوى أشباح الماضي تسكن الشوارع التي رأيتها ساكنة بائسة. والغريب أيضًا أني أقف على تل «بريمروز» — مثلما فعلت قبل يوم من كتابة هذا الفصل الأخير — لأرى الامتداد الفسيح من المنازل الباهتة الزرقاء وسط سديم الدخان والضباب الذي يختفي أخيرًا في السماء الدنيا، وأرى الناس يسيرون جيئة وذهابًا بين أحواض الأزهار فوق التل، وأرى المتفرجين على آلة المريخيين التي لا تزال هناك، وأسمع صخب الأطفال

وهم يلعبون، وأذكر الوقت عندما رأيت هذا المكان وضّاءً واضح المعالم ساكنًا فجر ذلك اليوم الأخير ...

والأغرب من هذا كله هو إمساكي بيد زوجتي مرة ثانية، والتفكير في أنني قد حسبتها — وأنها قد حسبتني — في عداد الموتى.